الفصل الثانى

أولاً : ميلاد حرب جديدة

يحوى التاريخ فى ذاكرته القرن العشرين الذى غربت شمسه منذ شهور قليلة بإعتباره أبرز وأخطر القرون التى عاشها بنو البشر فوق ظهرانى الأرض، حيث صنع أولاد آدم ما يزيد عشرات الأضعاف عما ابتكره أو صنعه من سبقوهم، منذ كان الإدراك، والوعى، والضمير، والفكر الإنسانى، أى منذ ما يُدانى الألف قرن من الزمان، عندما اكتشف الإنسان الزراعة، وعرف معنى الإستقرار، وتلك كانت بدايات الحضارة الإنسانية.

ويتميز القرن العشرين بأن كل حقبة فيه شهدت اندفاعة هائلة نحو آفاق جديدة من الضياء الباهر الذى مكن البشرية من اقتحام الظلمات والمجهول، كما شهد انطلاقة عظيمة مكنتها كذلك من عبور الجهل والتخلف إلى العلم والمعرفة وازدهار الصناعة، والتجارة، وقد أدت تلك الإندفاعة إلى حدوث فائض هائل لأوروبا عن طريق استغلال مستعمراتها حول العالم، خاصة بعد الإعلان الذى أصدرته الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن – مايو ١٨٩٠م – وجاء فيه « أن عملية الكشوف الجغرافية قد اكتملت وأنه لم تعد فى الكرة الأرضية كلها بقعة غير معروفة وغير مطروقة وغير مرسومة »(١).

وكانت شمس القرن العشرين قد أشرقت على العالمين وسط أفق ممتلئ بالتفاؤل والثقة المتزايدة بالنفس، حيث عاش الإنسان فى غمرة الإغتباط والنشوة لإحساسه بأنه أصبح يعرف عالمه براً وبحراً وجواً ومن القطب إلى القطب، وما وراء البحار بحيث أصبح الإنسان على وشك الوصول إلى حل الغاز المكنونات من أسراره فى أعماق النفس البشرية.

ومع بداية العقد الأول من القرن العشرين اكتسب معدل الإنتاج قوة مضاعفة فى كل المجالات والإتجاهات والمناحى، فعلى سبيل التمثيل لا الحصر دخلت الكشوف العلمية فى سباق مع الزمن لتمكين المجتمعات مما حققته الكشوف الجغرافية من نتائج لتحقيق أقصى استفادة ممكنة من المعطيات الجديدة، فقد استطاع (رذر فورد) أن يحدد الأشعة التى استطاع بها أن يكسر الذرة، وكان (بيير ومارى كونى) قد أمسكا

---

(١) ١٩٦٧ الانفجار – حرب الثلاثين سنة ص٣٠.

بمادة « الراديوم »، وكان « آينشتين » قد توصل لاكتشاف نظرية النسبية، وكان « ماركونى » يبعث بأول رسالة باللاسلكى عبر المحيط الأطلنطى، وتمكن « لاندشتينر » من التوصل إلى تحليل فصائل الدم، وصنع « إيستمان » أفلام الكوداك – واخترع « إديسون » بَعْدَ الكهرباء شيئًا جديداً يختزن الكهرباء – وهى – البطارية، وكان الأخوان (رايت) يقومان بتجربة أول طيران عبر الشمال من بريطانيا إلى فرنسا، أما (كورين فى باريس) فكان يجرب أول طائرة عمودية، وظهرت السينما الناطقة لأول مرة فى معرض باريس الدولى.

وقد وضعت بريطانيا أول غواصة فى عُمق البحار سيراً على درب استكمال الاستعدادات للقوة، وتدشين لترسانات العسكرية، وأحدث المدفع الرشاش انقلاباً جذرياً فى أساليب القتال تبدّت نتائجه المروعة فى المعركة مع الدراويش أثناء حملة إعادة فتح السودان، وفى بريطانيا تم استبدال وقود البوارج والمدمرات ليحل البترول محل البُخار، وبذلك اختلفت مطالب السيطرة على المحيطات، أما الدبابة فقد تم ترجمة تصورها إلى رسوم على الورق، وبدأ الطيران عصر الإمكانيات الهائلة لقلب نظريات القتال رأساً على عقب.

وفى القرن ذاته أضحت أساليب الحياة العادية للناس تتطور وتتغير يومًا تلو الآخر، حيث قدم « جيليت » « مُوسْ الحلاقة » السهل المريح، وظهر فى العالم لأول مرة دواء الإسبرين، وقد تم تسجيل أول أسطوانة صوتية فى أمريكا بصوت « كارزوم » وظهرت السيارة فى لندن من صنع الصديقين (رولز، و–رويس) وفى ألمانيا ظهرت السيارة من صنع « ديملر » و« بنز » التى اشتهرت باسم الشهيرة « مرسيدس » ابنة ديملر، كما شهد العقد ذاته تواصُلاً لحركات التحرر الإنسانى الزاحفة لتتهاوى أمام ضغط ثورات الجماهير التى زحفت على قصور « آل مانشو » فى بكين، وعلى قصور آل « رومانوف » فى سان بيترسبورج. وعلى آل هانسبورج فى فيينا[1].

وفى ذات الوقت كان غاندى يقود حركة ضد التمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا، قُدِّر لها أن تكون تجربة تمهيدية لما فعله بعد ذلك فى الهند، وكانت السيدة (بانكهرست) تقود حركة لتحرير المرأة فى إنجلترا مبتدئة بحق المشاركة فى التصويت والترشيح لانتخابات مجلس العموم، وكان أول حزب للعمال يجرى تأسيسه فى بريطانيا بمشاركة بين طلائع المثقفين، ونقابات العمال، وكان العالم العربى يتنبه بتأثير أجواء عصر إسماعيل، وحركة عرابى، ودعوات الأفغانى ومحمد عبده.

---

(١) ١٩٦٧ الإنفجار ص ٣٢.

وتنازل عالم الفكر (الكتاب) عن دوره بحكم الثورة التكنولوجية لعالَم الإعلام (التليفزيون والإذاعة)، ثم الفضائيات والكمبيوتر.

وهكذا لاح القرن الجديد (العشرون) منذ بداياته قرنًا للعلم وللحرية وللوفرة والغنى، وجاء يحمل معه نوعًا جديدًا أو أسلوبًا مختلفًا من الحياة السهلة فى تناولها، السريعة فى إيقاعها، ليؤكد مبكرًا أنه جاء تصاحبه بشارات السلام والرخاء والعدل للجميع.

ويبدو أن أحلام السلام والرخاء والعدل كانت سابقة لأوانها، لأنها جاءت مبكرًا، حيث جاء العقد الثانى من القرن العشرين ليقود العالم إلى حرب عالمية هى الأولى فى التاريخ لتتفجر منها شلالات الدم، ودخلتها أمريكا متأخرة بعد أن استنفد الجميع واستنزفوا قواهم، وقد استطاعت الولايات المتحدة حسم هذه الحرب بعد عام واحد من اشتراكها فيها.

وقد نتج عن هذه الحرب ظهور أمريكى علنى وصريح فى أوروبا، وتمكين البلاشفة من القضاء على عصر القياصرة والاستيلاء على السلطة فى روسيا، وقد اندفعوا لبناء الدولة الشيوعية الأولى فى التاريخ بقيادة « لينين ».

وظهرت أمريكا بعد تلك الأحداث وكأنها سيدة الكون فى العقود القادمة.

وفى العشرينات من القرن ذاته أثبتت الحقائق أن كل التوقُّعات سابقة لأوانها خاصة ما يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية، فما أن وضعت الحرب أوزارها حتى وجدت أمريكا نفسها غير قادرة على ترأس مجلس إدارة العالم، أو إدارته منفردة، وذلك لأن القوى الأوروبية لا تزال تملك بقايا رصيدها، وزخرها، وظلت الموازين الدولية تتأرجح حائرة بين ضفتى الأطلس.

وما جاء السلام وما جاء الرخاء وما جاء العدل

ووقع إنهيار اقتصادى عالمى كبير كانت بداياته عام ١٩٢٩ .م فى بورصة نيويورك، وجاءت الثلاثينات من القرن ذاته تحمل بوادر انفراجة للأزمة الإقتصادية الطاحنة، والتى أصبحت حقيقة قُبَيل العقد الرابع بمزيج من التعاون المثمر والبناء بين أراء الخبير الإقتصادى البريطانى (ماينارد كينز) وهمة السياسى الأمريكى (فرانكلين روزفلت)، وعاش البعض حلمًا كبيرًا بإمكانيات عودة الزمن الجميل « ما قبل الحرب العالمية الأولى » ولكن هيهات هيهات، فقد ظهرت النازية فى ألمانيا بقيادة (أدولف هيتلر) وقد تحالفت هذه مع الفاشية الإيطالية بقيادة (موسولينى) تعززها العسكرية اليابانية، وهؤلاء قد أشعلوا حربًا عالمية ثانية، وقفت فيها بريطانيا بشجاعة تحت قيادة

تشرشل، ثم رجحت موازين القوى مع دخول الإتحاد السوفيتى تحت قيادة «ستالين» بمدد من البشر ليست له نهاية، وكثافة نيرانيّة لم يستشعرها العالم من قبل.

وطال أمد الحرب ولم يحسمها غير التفجير الذرى الأمريكى فوق أرض جزيرتى «نجازاكى» و«هوروشيما» اليابانيتين، وتوقفت بذلك واحدة من أكبر مذابح التاريخ الإنسانى كله عند منتصف الأربعينات ما لم تكن أكبره على الإطلاق.

ويأتى التفجير الذرى لأمريكى فى اليابان بمثابة التأكيد على الشخصية الأمريكية القوية التى ستفرض كلمتها ولو باستخدام يدها خاصة بعد أن نزفت أوروبا التى صنعت اليقظة، والنهضة، والإمبراطورية ما تبقّى فيها من عزيمة، وإنهارت ما بها من قوة، وأصبحت عاجزة عن حماية أى قيمة أو احتضان أى فكرة أو رعاية أو اختراع.

وفتح النجم الجديد فى العالم الجديد بقائده الجديد ذراعيه بسرعة كبيرة يستقبل حضارة وعلوم وفنون وتكنولوجيا الغرب الهاربة إلى الولايات المتحدة، أو المهاجرة إليها، والتى كانت قد بدأت فى الهجرة فعلاً حتى قبل أن تتوقف الحرب، وذلك لأن أمريكا البعيدة عن ميادين الحرب وساحاتها باتت وهى الملاذ الآمن وراء المحيط الأطلسى لكل ما يستحق الحرص عليه فعلاً أو أملاً مما تبقى فى أوروبا، ومن هنا لجأت إلى العالم الجديد (أمريكا)، ولاذت به كل الأسرار العلمية للعالم القديم (أوروبا) من الذرة إلى الرادار ومن الكمبيوتر إلى المحرك النفاث، ومن البنسلين إلى الليزر، ثم أصبحت أمريكا مستودعاً لذهب العالم حتى أن وزارة الخزانة الأمريكية كدست فى مخزن ذهب واحد فى قلعة «فورت نوكس» ما قيمته أربعين بليون دولار من السبائك الذهبية ثم إنها أيضاً أصبحت مسرحاً لعبقريات الفكر والفن التى قصدت إليها وتوطئت فى مراكزها الفوارة من الجامعات والمعاهد إلى استيودهات السينما فى هوليود.

ورمزاً لكل هذا وربما إشهاراً له - فقد أصبحت نيويورك هى المقر الرسمى لمنظمة الأمم المتحدة التى أقيم مبناها على شاطئ النهر الشرقى فوق أرض قدمتها أسرة (روكفللر) منحة وهدية للمجتمع الدولى الجديد[1].

وجاءت الخمسينات بالغة التعقيد والغرابة، لأن السلاح الذى حسم الحرب العالمية الثانية قد ختم بها عصر الصراعات الدولية المسلحة، وذلك لأن الإحتكار الأمريكى للتسليح النووى قد كسرته الإرادة السوفيتية عملياً، أما من الناحية

---

(١) ١٩٦٧ الانفجار ص٣٤.

السياسية فإن الولايات المتحدة كانت ما تستطيع استخدام السلاح النووى مرة أخرى لدواعى إنسانية بحتة بعد أن تجلت بوضوح آثاره المدمرة للجنس البشرى ومقومات وجوده وبيئة حياته.

وقد تأكد ظن الإتحاد السوفيتى من أنه نجح فعلاً فى صنع شكل المستقبل وتثبيت دعائمه لما بقى من هذا القرن وما بعده.

ولم تُؤد استحالة الحرب إلى إحلال السلام أو حتى مجيء تباشيره، لأن هناك صراعًا جديداً قد بدأ بين العقائدية والمصالح التى تصادمت بين الولايات المتحدة الأمريكية التى تَحْمل فى رأسها (النظام الرأسمالى، والاتحاد السوفيتى) الذى بات يؤكد على النظام المغاير (الإشتراكى)، ولكن النار لا تصلح لإدارة هذا الصراع المتأجج بحمى المنافسة ولا تصلح كذلك كبديل عن نار القنابل التقليدية والنووية.

واحتدم الصراع الذى لم يكن هناك بُدّاً من تجربة أدوات جديدة لإدارته بعد أن ثبت فشل اللعب بالنار، وكانت تلك بدايةً لميلاد ونشوء حرب جديدة لا استخدام فيها للنيران ولا للأذرع المفتولة، تلك هى ما عرفت باسم «الحرب الباردة».

وكما شهد النصف الأول من القرن العشرين فترات ساخنة، وقعت فيها حروب طاحنة سالت فيها شلالات الدماء (كما تقدم) فإن النصف الأخير من القرن ذاته قد شهد أحداثًا جسامًا وحروبًا طاحنة ذات آثار مدمرة على المستوى الإقليمى فى شتى بقاع العالم خاصة فى القارتين الإسلاميتين (الضعيفتين).

وما ذلك غير نتاج أولى لما يسمى بالحرب الباردة، وهى الأسوء فى نتائجها على دول العالم الثالث (حقل الأبحاث وميدان التجارب ومقابر النفايات). واسترجع ما دار على أرضه منذ العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦م إلى إبادة المسلمين فى منطقة البلقان حتى مطلع القرن الجديد الحادى والعشرين. وانظر إلى سباق غزو الفضاء الذى بدأته الروسية «فالنتينا تريشكوفا» فى المدة من ١٦ : ١٩ مارس ١٩٦٣م، والذى انتهى بما يسمى بحرب النجوم الذى بدأه رونالد ريجان عند منتصف الثمانينات من القرن الماضى، وهو المشروع الجوى الصاروخى المتقدم ويبدو أن الخبراء السوفيت كانوا قد أعدوه سلفًا.

تأزمت العلاقات الأمريكية السوفيتية وفاجأ جورباتشوف العالم بقراره تجميد التجارب النووية السوفيتية من جانب واحد عند نهاية عام ١٩٨٥م.

وفى ٧/١٢/١٩٨٧م وقع الزعيم السوفيتى «ميخائيل جورباتشوف» مع نظيره

الأمريكى « رونالد ريجان » اتفاقية للحد من سباق التسلح وإزالة الصواريخ بعيدة ومتوسطة المدى ضمن إتفاقية عرفت باسم (ريكافيك)[١].

لقد أدت الحرب الباردة إلى تقليص احتمالات الحروب العالمية، غير أنها أدت إلى نشوء نزاعات ومصادمات مسلحة بين دول كلها من العالم الثالث التى انقسمت على نفسها بين شيوعية أو امبريالية، وعلى الرغم من نشر الاتحاد السوفيتى لصواريخه على الحدود الأمريكية عند « كوبا »، ونشر الولايات المتحدة لصواريخها على الحدود الشرقية لأوروبا فى تهديد مباشر لموسكو، فإن تهديداً حقيقياً بإمكانية نشوب حرب فعلية بين الدولتين بات غير وارد بالمرة حتى انتهت الأحداث بإعلان تفكيك الإتحاد السوفيتى الذى انهار بإعلان جورباتشوف فى ٢٤/٨/١٩٩١م تجميد نشاط الحزب الشيوعى السوفيتى الفيدرالى واستقالته من منصبه، وتفككت يوغوسلافيا الاتحادية فى ١٥/١/١٩٩٢، ثم حل نفسه تماماً فى ١/٧/١٩٩٢م وبات فى ذمة التاريخ، وكان البرلمان التشيكوسلوفاكى قد أنهى فى ٣٠/١١/٨٩م سيطرة الشيوعيين على البلاد إلى غير رجعة، ثم انفصلت سلوفينيا والتشيك فى هدوء تام.

حاولت الولايات المتحدة لعب دور رجل الشرطة فى العالم منذ وقت مبكر حتى قبل أن ينهار الإتحاد السوفيتى، فذهبت قواتها إلى لبنان ولكنها رحلت خاسرة، بعد أن أزلتهم ميليشيات حزب الله، كما ذهبت تلك القوات إلى الصومال وقد خابت وخسرت وانسحبت، كما عربدت فى دول جوارها وغيرت أنظمة الحكم فى بعضها، حيث تقدمت القوات الأمريكية لغزو بنما من أجل أسر رئيسها « مانويل نورييجا » الذى استسلم لها فى ٣/١/١٩٩٠ وتم اعتقاله.

تلك هى بعض من ملامح الحرب الباردة التى سادت العلاقات الدولية المباشرة والتى تأثرت مباشرة بالتبعية بشكل وحجم العلاقة بين القطبين الكبيرين.

* * *

ثانياً : نظام اللانظام

شهد النصف الأول من القرن العشرين أحداثاً جساماً على المسرح الدولى كله، أدت تلك الأحداث فى مجملها إلى إحداث متغيرات جوهرية لا على سطح الكرة الأرضيّة وحدها، بل طالت كل شىء حتى الفضاء الخارجى، وأعماق البحار، فبدلت أوضاعاً وغيّرت مفاهيم، ورفعت أقواماً وخفضت آخرين.

---

(١) معلومات أساسية عن الدولة والقانون السوفيتيين ص٢٩ – كوتافين.

ففى الوقت الذى رحلت فيه الخلافة الإسلامية التركية، اتفقت أوروبا على تقسيم التركة العثمانية فى العالم العربى كله وتقسيم الفريسة بدلاً من التصارع عليها ضمن إتفاقية « سايكس – بيكو » سنة ١٩١٦م.

وعندما جاهد « الشريف حسين » شَريف مكة وأعلن الجهاد ضد الأتراك وانضم إلى بريطانيا فى حربها ضد تركيا على أمل ضمان مساعدتها له فى إقامة دولة عربية عظمى يتولى هو فيها الخلافة فى معزل عن الأتراك، وهو يحظى بتأييد خديوى مصر « عباس حلمى الثانى » حتى سقطت الخلافة الإسلامية التركية فى ١٩٠٨م، وكانت بريطانيا تُعد فى الخفاء القائد العربى الجديد الذى جاء من الشرق تدعمه حكومة الهند الإنجليزية ليصير ملكًا على الحجاز فيما بعد ١٩٢٦م – وقد غادر الشريف حسين أراضى الحجاز إلى غير رجعة عقب هذه الأحداث، وأثناء المواجهات بين قوات الشريف حسين والقادم الجديد (عبد العزيز آل سعود) تمكنت بريطانيا من إقالة « عباس حلمى الثانى » فى ١٩١٤ .م.

وعندما اتفق الأوربيون على المصالحة التاريخية والعمل معًا نحو قيام الإتحاد الأوروبى، والسوق الأوروبية المشتركة. صدّروا إلينا فى أوطاننا ما كان يؤرقهم من صراع القوميات والأممية التى مزقتهم، وأوقعت بينهم حروبًا طاحنة دامت لسنوات طويلة، وقد نتج عن هذا التصرف أن حلت القومية محل الدين – فظهرت على السطح دعوات المطالبة بالقومية العربية، والقومية الكردية، وقومية البربر وقومية الزنوج فى جنوب السودان، ودخلت الدولة الواحدة فى صراعات الأحزاب السياسية بين شيوعية وعمالية وليبرالية ووطنية... إلخ وكلها أدوات للّهو والعبث السياسى بعيداً عن الفكر الإسلامى الذى اتُّهم أصحابه بالإرهاب والأصولَية واتجهت الكثير من الدول الإسلامية إلى فصل الدين عن السياسة والسياسة عن الدين واتجهت معظم الحكومات نحو العلمانية والعولمة بتأن وحكمة وبهدوء، حتى لا تصطدم بالشعوب المتحمسة وبشدة لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية.

وهكذا تحللت الأمة وتعالت صيحات النزاعات القبلية والفتن الداخلية مما أدى إلى مصادمات مسلحة وحروب دموية طويلة بينية بين بلدان العالم العربى بعضه فى بعض وبين بعض بلدان العرب ودول جواره المسلم وغير المسلم على السواء.

وفى القرن ذاته انهارت أكبر الإمبراطوريات التى عرفَها العالم (الإمبراطورية البريطانية العظمى التى لا تغيب عنها الشمس) كناية عن اتساع سلطانها وترامى أطرافها، وعلى أنقاضها ظهرت قوتان جديدتان قفزتا فوق العالم وأمسكتا بزمام الأمور الدولية وتوجيهها وتسييرها والتحكم فيها وإدارتها بأسلوبين مختلفين – الأول

اشتراكى شيوعى ملحد بقيادة النجم الجديد الذى ظهر فجأة عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية (الاتحاد السوفيتى)، والثانى رأسمالى إمبريالى صليبى متصهين، (الولايات المتحدة الأمريكية). وانقسم العالم العربى والإسلامى بإنقسام العالم وتحول الجميع إلى توابع تدور إما فى فلك المعسكر الشرقى أو الغربى.

وسرعان ما ذاب القطب السوفيتى فجأة كما ظهر فجأة، وانفردت الولايات المتحدة بالتحكم فى مقاليد العالم الذى أضحى وحيد القطب لتبدو معه أمريكا وهى البلد (وحيد القرن) الجديد من الألفية الجديدة التى تَتَرأس مجلس إدارة العالم من غير منافس أو منازع وإلى حين تادم من الدهر.

وقد سجل القرن العشرون على صفحات سجلاته، وفى ذاكرة تاريخه انتصار رغبة الألمان فى إعادة توحيد شطرى ألمانيا (سلمًا) وقد حطم الألمان سور برلين العظيم بأظافرهم، ونُقلت العاصمة من بون إلى برلين لتعويض شعب الأخيرة عن سنوات القهر والحرمان فى ظل النظام الشيوعى المحتل السابق.

وقد شاهد العالم العربى فى المقابل هجومًا يمنيًا شماليًا بقيادة (على عبدالله صالح) الرئيس اليمنى على اليمن الجنوبى برئاسة نائبه على سالم البيض، وتراشق هؤلاء وهؤلاء بالدبابات ومات كثر من (٥٠,٠٠٠) خمسين ألف يمنى هم ضحايا عمليات إعادة توحيد شطرى اليمن.

أما أوروبا فقد توحدت وألغت الحدود السياسية بين دولها، وارتبط الجميع فى رباط اقتصادى واحد وخرج إلى الوجود الاتحاد الأوروبى، والسوق الأوروبية المشتركة، وصارت لهم عملة واحدة مُوّحدة هى (اليورو). بينما عجز العرب عن ترجمة آمالهم فى إقامة السوق العربية المشتركة المنصوص عليها فى ميثاق الجامعة العربية عند تأسيسها عند منتصف أربعينات القرن الماضى وحتى الآن.

وفيه كذلك أصبح لأوروبا جيشًا واحدًا يعمل تحت رئاسة أركان واحدة، ويخضع لبرامج تدريبية مشتركة ضمن خطط مدروسة تم إعدادها بدقة، ثم يأتوا إلى الشرق بين حين وآخر للإستفادة من خبراتنا القتالية العظيمة وللتعرف على مدى استيعابنا على الحديث من الأسحة المتقدمة التى تعتمد على التكنولوجيا الراقية التى هى من إنتاجهم، وقد انطلقت مؤخرًا دعوة جديدة لقيام الولايات المتحدة الأوروبية، وعقدت لأجلها المؤتمرات – وإن الغد لقريب.

أما العرب فإنهم حتى الآن عاجزون عن فهم حقيقة نظرية الأمن القومى العربى فى مجمله – وقد فشلوا فى تفعيل اتفاقية الدفاع العربى المشترك التى لا تتعدى

كونها نوايا حسنة بين دول الجوار العربى – حتى فى المرة الوحيدة التى خرجت فيها إلى النور فى عام ١٩٤٨م حاق بها الخسران المبين والتصقت بها الهزيمة النكراء، حيث تمكنت العصابات الصهيونية المنظمة من هزيمة الجيوش العربية التى دخلت فلسطين.

أما ما حدث عند حرب العاشر من رمضان السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م إنما كان من وجهة نظرى – هو الإنفعال العاطفى التلقائى والواجب الأخلاقى المبدئى الذى يوجب على كل لبيب وصاحب مبدأ أن يفعل ما فعل العرب فى وقفتهم مع مصر، فما كان إنما كان من باب الواجب الدينى والإجتماعى والأخلاقى ولم يكن عودة للحياة وجرياناً للدماء فى إتفاقية تم تجميدها فى ثلاجة التاريخ العربى الحديث.

وعندما أعلن الرئيس السادات عن استعداده للذهاب إلى القدس بحثاً عن السلام مع إسرائيل لأنه قرأ الأحداث مبكراً، وفهمها جيداً، وتعامل معها بخبرة وحنكة وكياسة، حدث الإنقسام فى الجدار العربى الذى كان قد أُصيب سلفاً بشرخ بالغ، وكال العرب الإتهامات للرئيس «السادات» واتهموه ببيع القضية الفلسطينية والتخلى عن القضايا العربية خاصة بعد أن وقعت مصر اتفاق سلام منفرد مع إسرائيل – بعد أن خذلها العرب فى الحضور إلى مفاوضات السلام المتعددة التى دعاهم إليها السادات فى القاهرة وعقب توقيع الإتفاقية فى ٢٦ / ٣ / ٧٩م انتقلت الجامعة العربية من بيتها الدائم فى القاهرة إلى مقر بديل فى تونس، وظل التأزم العربى مستمراً حتى بعد مقتل الرئيس السادات فى ٦ / ١٠ / ١٩٨١م – أو – قل يوم استشهاده.

وما أن تولى الرئيس «محمد حسنى مبارك» مهام السلطة فى مصر حتى عمل بكل قوته لإصلاح ما أتلفه الزمن، وما أفسدته العقول، فاستجابت الدول العربية لدعوة «مبارك» وبدأت عودة العلاقات الطبيعية مع مصر تباعاً، وقبيل منتصف الثمانينات شهدت القاهرة المصالحة العربية الكبرى – وعادت الجامعة العربية إلى القاهرة.

ثم حدثت فيما بعد متغيرات دولية وإقليمية خطيرة حددت ملامح القرن الجديد (الواحد والعشرين) وهيأت لقدومه.

وقد أشارت الدلائل، وأكدت القرائن أن هذا القرن سوف يكون قرناً أمريكياً خالصاً ليصبح العالم فيه تابعاً لأول مرة فى ظاهرة لم تأت من قبل، وهى بروز كيان أقوى من الدولة وأكبر من الإمبراطورية وهى كيان القوة الأعظم الذى تتوافر له زوايا ثلاثية الأبعاد الإستراتيجية (القدرة الشاملة بالقوة والفكرة، والمعسكر الذى يقف ورائها مقتنعاً أو مضطراً، والنموذج العالمى الذى تقدمه هذه القوة دعوة ومثالاً) تلك هى القوة التى أطلقت عليها مُسمّى (وحيد القرن) فى كتابنا السابق «وحيد القرن ورياح التغيير».

وعليه فإن القرن الجديد (٢١) سيكون قرنًا أمريكيًا خالصًا بمقدار ما كان القرن الثامن عشر « من لويس الرابع عشر إلى نابليون الأول قرنًا فرنسيًا خالصًا » وبمقدار ما كان القرن التاسع عشر « بعصر فيكتوريا وأبهته قرنًا بريطانيًا » .

وأقبل القرن الجديد محملاً بأريج الزهور الأمريكية، مكتظًا بوعود « الرخاء والسلام والعدل » للجميع ولكنه :

الرخاء : بالمفهوم الأمريكى .

السلام : بالمعنى الأمريكى .

العدل : بالكيل الأمريكى .

الذى يتعين على العالم إدراكه، وقبوله، والإقتناع به، أو – فليفرض عليه بأم القنابل كما حدث فى بنما، وأفغانستان، والعراق .

تلك هى ملامح النظام العالمى الجديد – نظام اللانظام – الذى سيسود فى إمبراطورية وحيد القرن . التى لا تعرف حدودًا جغرافية فهى فى الحقيقة إطار لا مقر له، ولا عاصمة، ولا شعب، فقد رأينا إمبراطورية البترول كيف صعدت إلى الأعالى، ثم إمبراطورية السلاح، ثم امبراطوزيات البنوك والتأمين فالطيران، فالاليكترونيّات ثم امبراطورية الفضاء فإمبراطورية الأقمار الصناعية، فالتليفونات فالتليفزيون ... وهكذا ...

وكلها وغيرها إمبراطوريات جديدة قوتها كبيرة، وفعلها غير مرئى، سيطرتها محسوسة ولكنها لا تقاوم على ساحة أو فى شارع أو من على منبر فى الأمم المتحدة، وفى بعض الأحيان تتجلى هذه الإمبراطوريات من بعيد مثل ظواهر الطبيعة، لكن أحدًا لا يستطيع أن يستوقفها ، إلا فهى محاولة أشبه ما تكون بدق المسامير فى سحابة حتى يتيسر وقف ارتحالها ومساءلتها من أين؟ ولماذا؟ (١)؟

ومع بداية ملامح المرحلة الجديدة فى التطبيق الفعلى، بدأت بها مرحلة جديدة من العقود التى ستتواصل إلى حين ... من صراع الحضارات، وحوار الدبابات، وهو صراع متجدد، وحوار لا ينقطع فى ظل انعدام كل بشارات الوعد الحضارى المتعلقة بالقرن العشرين التى لن تأتى مطلقًا ما لم يأتى قبلها السلام والرخاء والعدل الذى ينشده الجميع . خاصة بعد أن بدأ العالم يعيش تفاعلات وتقلصات وصراعات لم يسبق لها مثيل مع انفراد وحيد القرن بالجلوس منفردًا على مقعد رئاسة مجلس إدارة العالم بل والإنفراد بإدارته، وقيادته إلى المجهول المطلق .

* * *

---

(١) ١٩٦٧ الانفجار ص٤٤ .

ثالثًا : الحضارة الإسلامية فى النظام العالمى الجديد

١ - بين الأوغاد والأمجاد

(أ) المقارنة

عندما أخذت الحضارة الرومانية فى التلاشى إثر انهيار الإمبراطورية الغربية الرومانية الغربية فى القرن الخامس الميلادى فى ظلال الحكومات التى أقامتها القبائل المتبربرة فى أوروبا، وساد أوروبا بسبب ذلك سحابة كئيبة من التأخر والإنحطاط.

وقد عُنيت الكنيسة بتلقين رجالها ما يتصل بالناحية الدينية عندما كانت تعدهم للقيام بمهامهم خاصة فيما يتعلق بتلك المهام من الخرافات مع الحرص على غلق كل باب أمام الدراسات العلمية، وذلك لأن العقيدة المسيحية فى رأى الكنيسة تقوم على أساس من الإيمان فى حين يعتمد العلم على التعقل.

وقد نُقل عن القديس (أوجستين) وهو مسئول من رجال الكنيسة (٣٥٤-٤٣٠م) أنه أبدى دهشته ممن يفكرون فى ارتفاع الجبال، ومدارات الكواكب، ويهملون التأمل فى أنفسهم، وأنه كان يهزأ ممن يقولون بكروية الأرض[١].

كان هذا فى الوقت الذى كان المسلمون فيه قد بنوا حضارة شامخة تمتع الناس فى ظلالها بحرية الفكر، ونعموا بسرعة التطور، وقد قال المؤرخ فيليب حَتِّى فى ذلك: «إن العصر الذى أطلع فيه الرشيد والمأمون الشرق على خبايا الفلسفة اليونانية والفارسية هو العصر الذى كان شارلمان ونبلاؤه يحاولون أن يتعلموا فيه كيف يكتبون أسماءهم»[٢].

وقد تحدثنا عن الحياة الإجتماعية والبيئية فى أوروبا زمن العصور الوسطى، ونضيف ههنا أن وسط أوروبا وغربها كان مكسواً بالأحراش والمستنقعات، وتنتشر فيها الأمراض والأوبئة، أما السواد الأعظم من سكانها فإنهم الأقنان والعبيد، أما الأقلية المترفة فهم الأمراء والنُبَلاء ورجال الدين.

ولم يَفق الأوربيون من تُباتهم إلا فى القرن الحادى عشر الميلادى ليجدوا أنفسهم أمام حضارة إسلامية شامخة لم تترك علمًا ولا أدبًا، ولا فنًا إلا وأسهمت فيه، وأضافت إليه بنصيب وافر من الإبداع والتطوير والتّحديث.

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ص١٧٦.

(٢) المصدر ذاته - والصفحة ذاتها.

وقد هرع طلاب العلم والمعرفة من الأوروبيين إلى مراكز الحضارة الإسلامية ينهلون من معينها الفيّاض، ويترجمون ما استطاعوا ترجمته من مؤلفات المسلمين ويحاكون ما أمكنهم محاكاته من الفنون والإبداعات العربية.

أما الحضارة الإسلامية العظيمة فى تلك العصور فقد شكلت معالمها مجموعة من العناصر المتداخلة المركبة والتى كان من أهمها:

* عُنى المسلمون باستخراج الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والكبريت والزئبق والنفط من باطن الأرض، وبرعوا في صناعة تلك المعادن، بالإضافة إلى إنتاج المصانع العربية أجود أنواع الأقمشة، والمنسوجات، والزجاج، والورق، والخزف، والحلى.

ومع الإهتمام الواضح باستخراج المواد الخام وصناعتها إلا أن المسلمين لم يُهملوا الزراعة، فقد اهتموا بشق الترع، والقنوات، والمصارف، وأقاموا الجسور، وبفضل هذا جادت أرض العراق، والشام، ومصر، والأندلس بالمحاصيل الوفيرة المتنوعة بعد أن نقلوا من الهند أشجار البرتقال وقصب السكر وتعلموا فنون تصنيعه، ويذكر المؤرخون أن العرب هم أول من أدخلوا زراعة القطن إلى أوروبا.

* أدى التقدم الصناعى فى البلاد العربية وجودة الزراعة إلى ازدهار النشاط التجارى. وقام المسلمون بدور الوسيط بين القارات الثلاث آسيا وأروبا وأفريقيا، هذا إلى جانب ما قام به المسلمون من نشاط بحرى سيطروا به تماماً على البحرين الأحمر والمتوسط والمحيط الهندى، حيث وصلت سفنهم إلى الحبشة، والهند، والصين، وجذر الهند الشرقية، وأصبحت بغداد ودمشق ودمياط وغيرها من المدن الإسلامية مقصد التجارة من كل صوب.

يدل على هذا النشاط التجارى تلك العملات العربية التى عُثر على الكثير منها فى مراكز متعددة تمتد من بحر قزوين و« كييف » عاصمة اوكرانيا حتى بحر البلطيق شمالاً خاصة فى شبه جزيرة اسكندناوة(١).

* ازدهرت العلوم، وتقدمت الفنون والآداب بفضل ذلك الرخاء الإقتصادى وما صاحبه من الاستقرار والأمن، وكان المسلمون إذا نزلوا بأرض واستقروا بها أقاموا عليها المساجد، والمدارس، والجامعات الإسلامية، من ذلك ما هو كائن فى بغداد، ودمشق، والقاهرة، وقرطبة، كما أنشأوا المكتبات العامة التى تضم بين جنباتها آلاف الكتب، وقد بلغ عدد المكتبات العامة فى الأندلس وحدها « سبعين مكتبة ».

وقد قامت نهضة شاملة أثرت جوانب النشاط الفكرى فى جميع أرجاء الدولة

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ص١٧٨.

الإسلامية بفضل السياسة العظيمة التى اتبعها الخلفاء من بنى العباس، والتى تمثلت فى إرسال العلماء إلى مختلف الأنحاء الإسلامية وغيرها، للبحث عن المخطوطات لحملها، أو ترجمتها، وعكف المترجمون على نقل أمهات الكتب من اللغات اليونانية، والسريانيّة، والفهلوية الفارسية، والسنسكريتية الهندية إلى اللغة العربية.

ولم يقف المسلمون عند مجرد النقل بل جاوزوه إلى الدرس والتمحيص، وقد تمكنوا من الوصول إلى اكتشافات علمية مبتكرة، أكملوا بها ما كان مبتوراً من الأبحاث، وصححوا أخطاء السابقين من العلماء.

وقد تجلى سبق العرب لغيرهم فى الرياضيات، والطب، والكيمياء، والفلك، والفلسفة، والجغرافيا، وهكذا قام المسلمون بدورهم الثقافى والتربوى الرائد فى خدمة الحضارة البشرية على وجه العموم.

* * *

(ب) الإبداع

ما أن إنحسرت السلطة المركزية فى الدولة الإسلامية حتّى تعدّدت الأقاليم، واستقل كل إقليم بأميره، وقد تنافس هؤلاء الأمراء فى كل ما من شأنه تجميل دولهم وإماراتهم بالحرف الدقيقة، والفنون الجميلة، والعلماء، والشعراء، والفلاسفة.

وقد حظيت المكتبات بمكانة عظيمة يُعتز بها ويُسعى لتنميتها، ووجد فى كل قطر طائفة من المكتبات يغشاها الناس، ويتعلمون منها، وكان لا بد من أن تنشأ بكل جامع كبير مكتبة كبيرة.

وحتى نتدارك الجهد الجبار، والعمل الجاد الذى كان يُصاحب إنشاء المكتبات من الجهد والأموال. لا بد أن نتذكر حقيقة أكيدة صاحبت عصور الإبداع كلها، وهى انعدام الطباعة التى كانت لم تُخترع بعد، وعلى الرغم من ذلك فإن الإبداع العربى لم يعرف للنهاية حدوداً فظهرت فكرة جديدة وجادة تُعبّر وبحق عن عظمة العمل العربى، والفكر العربى، وقدرته الإبداعية الخلاقة فكانت تلك هى فكرة استحداث « دكاكين بيع الكتب » – أو هى – دكاكين « الورّاقين ».

وقد أُنشئت هذه الفكرة فى الأصل لأعمال تجارية، ثم تحولت سريعًا إلى صالونات ثقافية، ومسارح للأدب والجدل العلمى، بعد أن قصدها المثقفون، والأدباء، واتخذوا منها مكانًا لإجتماعاتهم وأبحاثهم اليومية الإنعقاد، وقد شهدت دكاكين الوراقين أول نشأتها مع فجر الدولة العباسية، ومنها انتقلت إلى البلدان الإسلامية.

ولم يكن بائعو الكتب مجرد تجار ينشدون الربح أو التربح، وإنما كان سَوَادُهُم أدباء يبتغون اللذّة العقلية، والسعادة الفكرية، من حرفتهم التى أتاحت لهم القراءة والاضطلاع، وقد جذب هؤلاء إلى دكاكين الوراقين العلماء، والفقهاء، والأدباء.

وقد وُجد من بين الوراقين شخصيات علمية بارزة أثرت الفكر الإنسانى بالعديد من مختلف فروع العلوم، والفنون، والمعرفة، والآداب – من أشهرهم «ابن النديم» «صاحب كتاب الفهرست»، و«على بن عيسى» الذى قال عنه ياقوت الحموى إنه كان وراقًا وأديبًا فاضلاً، له عدد من الكتب، بالإضافة إلى صاحب الكتابين المعروفين «معجم البلدان»، و«معجم الأدباء».

وقد اهتم الوراقون بنسخ الكتب الهامة، وعرضها للراغبين فيها نظير أجر متواضع، وقد ذُكر أن العالم والأديب الكبير الملقب بالجاحظ كان يكترى دكاكين الوراقين، ويبيت فيها ليستوعب ما كانت تحتويه من الكتب، كما كانت تلك الدكاكين بمثابة قبلة يقصدها العلماء والطلاب للمناقشة والإطلاع، ولم يقتصر النشاط العلمى على الوّراقين وحدهم بل امتد إلى غيرها من المحلات التجارية حتى المتواضع منها، ومن أمثلتها ذلك الحانوت المتواضع الذى كان أبو العتاهية يبيع فيه الجرار والفخار، حيث كان يتوافد عليه الأحداث والمتأدبون، وكان أبو العتاهية ينشدهم أشعاره فيكتبُها هؤلاء على ما تَكَسَّر من الخزف.

وكان أبو بكر الصبغى المتوفى سنة ٣٤٤هـ يعمل الصبغ بنفسه، ويبيعه فى حانوته، وهو من أعيان فقهاء الشافعية، وكان حانوته مجمع الفقهاء والمحدثين(١).

مما تقدم يتضح ما كان لدكاكين الوراقين ومانحوها من أهمية قصوى فى إثراء الحياة الفكرية والعلمية، وقد نجحت تلك الدكاكين باعتبارها مكانًا يقصده الراغبون والمريدون بعيداً عن المنازل التى لم تكن تصلح لهذا الغرض بسبب صعوبة التوفيق بين ما يطلب فيها من سكن، وما يراد منها من الهدوء، وبين ما يكون فى حلقات الدرس وحلقات التعليم من ضجيج ومناقشات، أما ما كان من حلقات التعليم فى المنازل الخاصة فما كان إلا لضرورة دعت إلى ذلك.

وقد حوت كتب التاريخ والأدب ما يؤكد على أن منازل العلماء قد أسهمت بنصيب كبير فى نشر الثقافات فى المجتمعات الإسلامية.

وقد حرص كثير من الخلفاء على أن تصبح بيوتهم مراكز إشعاع لألوان مختلفة من العلوم والآداب، ففتحوا أبوابها للعلماء فى مواعيد محددة مع السماح لفئة معينة من الناس بحضور تلك الندوات العلمية.

وقد اتسع ذلك النشاط من سنة (١٧٠هـ: ١٩٣هـ) أيام خلافة هارون الرشيد، الذى حوت مجالسه العلمية شخصيات عظيمة ولامعة فى علوم اللغة العربية

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى – بتصرف.

(الكسائى – أبو عبيدة – الأصمعى)، وفى الفقه صاحب كتاب «الخراج» تلميذ أبو حنيفة المسمى «أبو يوسف» الملقب «قاضى القضاة»، وفى الشعر «أبو العتاهية – و أبو نواس» وفى التاريخ «الواقدى» وفى الموسيقى والغناء «إبراهيم الموصلى – وولده إسحق»، وقد اكتسبت تلك الصالونات الأدبية أهميتها من ذلك بينما كان المجتمعون ينصرفون بعد إشارة خاصة يُشير بها الخليفة.

أما مصر فقد دخَلتها الصالونات الأدبية فى عصر الدولة الطولونية، وقد روى غير واحد من المؤرخين أنه لم يكن فى مصر مدارس، وأن حلقات العلم ودروس التعليم كانت تتم فى قصور الأمراء والوزراء وفى منازل العلماء أثناء عصر الطولونيين والإخشيديين وعندما تولى – كافور الإخشيدى – أمور السلطة فى مصر اعتبر نفسه راعيًا للعلم والعلماء، وقرّب إليه الشعراء، و«أجَازَهُم».

أمّا المساجد فقد اضطلعت بدور عظيم فى مجال الدعوة والتعليم والإعلام بعد أن كثرت أعدادها باتساع سلطان الدولة العباسية، ودخول الأمصار المفتوحة فى حوزة المسلمين، وقد كثرت بالتالى المجالس العلمية فى المساجد، وكانت أصوات المدرسين والطلبة أثناء مباشرة العملية التعليمية فى أركان المساجد تُحدث نوعًا من الضجيج يتنافى تمامًا مع ما أُعدت المساجد له من الصلاة وغيرها من العبادات بما يهدد بافساد تلك العبادات، فوجب أن تُنزّه المساجد بفصلها عن دور العلم، لذلك فقد فكر المسلمون فى أبنية تُنقل إليها الأنشطة التعليمية فكانت «المدارس» التى اشتغلت أول الأمر بالعلوم الدينية، وتدريس الفقه الإسلامى على المذاهب الأربعة لتواكب روح العصر ومتطلباته، وقد روى الحاكم النيسابورى أن تلك المدارس قد بُنيت فى عهد «أبى إسحق الأسفراييني» بنيسابور بعد القرن الرابع الهجرى، وذكروا فى غير كتاب أن «أبا بكرّ البستى» المتوفى فى ٤٢٩ هـ بَنَى لأهل العلم مدرسة على باب داره، وكذلك فقد أقام السلطان «ملكشاه» ابن السلطان «ألب أرسلان» عددًا من المدارس نُسبَت إليه، وعرفت بالمدارس النظامية ببغداد.

وقد أقام نور الدين زنكى أول مدرسة بدمشق على نصف ميل من المسجد الأموى، وقد قال الرحالة ابن جُبير عن تلك المدرسة أنها أحسن مدارس الدنْيَا، وإنّها تشتمل على كل ما يحتاجه المدرسون والطلبة، وقد خُصِّصت تلك المدرسة لتدريس الفقه الحنفى، واختير للتدريس فيها نُخبة من علماء هذا المذهب.

أما أشهر مدارس القاهرة فكانت المدرسة الناصرية التى أقامها الناصر «صلاح الدين الأيوبى» وقت أن كان وزيرًا لآخر الخلفاء الفاطميين، وقد أُعدت لتدريس الفقه

الشافعى، وبعد أن ثار صلاح الدين على الفاطميين واستولى على السلطة – من فوره دعا للخليفة العباسى، وقد أيده الخليفة على ذلك، وعينه سلطانًا على مصر، وعلى الفور قام السلطان الجديد (صلاح الدين) بمناهضة المذهب الشيعى فى مصر وقضى عليه تمامًا، وأصبحت مصر سنية منذ ذلك الحين، ثم أقام مدرسة ثانية لتدريس فقه المالكية.

وفى أيام المماليك أقام الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية، وأمر بأن لا يعمل فيها أحد بغير أجر، وكان لأهل كل طائفة (إيوان)[1] للمحاضرات، وألحق بها مكتبة كبيرة اشتملت على أمهات الكتب فى العلوم المختلفة، وبنى بجوارها مكتبًا لتحفيظ القرآن الكريم لأبناء المسلمين[2]، ثم بدأت المدارس تباعًا وتتطورت خدماتها وتنوعت أهدافها حتى وصلت إلى ما نحن عليه الآن.

* * *

(جـ) الحـــوار

رأينا كيف كان الإختلاف البَيِّن بين التقدم والتخلف – أى – كيف تَبْعُد المسافات بين الظلمات والجهل والرذيلة وبين العلم والنور والفضيلة، وبذلك نُدرك يقينا كيف نبغ العرب والمسلمون، وكيف أبدعوا فى شتى مناحى الحياة من دون تفريط فى الجانب الروحى – أى – «العقيدة» باعتبارها ذروة الإيمان – وذلك لأن الإسلام دين يدعو إلى العلم والتطوير والعمل المخلص، وهو الأمر الذى جعل المسلمين مبكرًا يركبون رياح التقدم ويرتقون إلى أسمى مراتب الرقى بما حازوا من أدواته من علم ومعرفة وإبداع وتطوير وإجادة، فى وقت كانت فيه أوروبا على نحو ما ذكرنا فى غير مناسبة.

ولما قامت فى أوروبا النهضة العلمية والثورة الصناعية الهائلة التى جعلت أوروبا فى ما هى عليه الآن – وقع على الجانب المآخر تخليًا من العرب والمسلمين عن كثير من أهدافهم وطموحاتهم وأدواتهم حتى صاروا على ما هم فيه من بيات وانحدار.

ولما كانت ردّة الفعل الصليبية عنيفة على نحو يفوق كثيرًا ما تيسر ذكره، فإن الحديث منها فى إدارة الحوار الدائر الآن بين أتباع المدنيّة والتطوير، وبين أصحاب الحضارة الطاعنة فى التاريخ لهو حديث ناعم الملمس نجس المعنى، يحمل فى ظاهره دعاوى السلام والحوار والمؤاخاة، وباطنه يحوى صور العذاب، من أهم هذه الصور ما نورد تمثيلاً لا حصرًا.

---

(١) قاعة.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى – بتصرف.

الأول: أن العالم الإسلامي على إطلاقه خاصة العربي منه قد خسر كثيراً بعد أن وقع تحت الإحتلال الأوروبي الذي فَصل القاعدة عن القمة، وحارب العلماء وقتلهم أو نفاهم، فعم الجهل، وساد الفقر، وانتشر التخلف، وفشت الأمراض والأوبئة، وسُرِقت المواد الخام، واستولى المستعمرون على الأراضي الزراعية، وسخّروا لزراعتها المزارعين لصالح الشركات الزراعية الأجنبية أو الملاك الجُدُد للأراضي، وصار المسلمون من بعد مجرد مستهلكين للسلع الغربية الواردة إليهم بعد أن كانوا سادة التصنيع والتجارة.

وفي ذلك يقول مسئوول في وزارة الخارجية الفرنسية سنة ١٩٥٢ .م [ليست الشيوعية خَطراً على أوروبا فيما يبدو لي، إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديداً مباشراً وعنيفاً هو الخَطَر الإسلامي، فالمسلمون عالم مستقل كل الإستقلال عن عالمنا الغربي، فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص بهم، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة، فهم جديرون أن يقيموا قواعد عالم جديد، دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية في الحضارة الغربية.

فإذا تهيأت لهم أسباب الإنتاج الصناعي في نطاقه الواسع انطلقوا في العالم يحملون تراثهم الحضاري الثمين، وانتشروا في الأرض، يزيلون منه قواعد الحضارة الغربية، ويقذفون برسالتها إلى متاحف التاريخ.

وقد حاولنا نحن الفرنسيون خلال حكمنا الطويل للجزائر أن نتغلب على شخصية الشعب المسلمة فكان الإخفاق الكامل نتيجة مجهوداتنا الكبيرة الضخمة.

إن العالم الإسلامي عملاق مقيد، عملاق لم يكشف نفسه حتى الآن اكتشافاً تامّاً، فهو حائر، وهو قلق، وهو كاره لانحطاطه وتخلفه، وراغب رغْبَة يُخالطها الكسل والفوضى في مستقبل أحسن، وحرية أوفر.

فلنعط هذا العالم الإسلامي ما يشاء، ولْنقوِّ في نفسه الرغْبَة في عدم الإنتاج الصناعي والفَنّي، حتى لا ينهض، فإذا عجزنا عن تحقيق هذا الهدف بإبقاء المسلم متخلفاً، وتحرر العملاق من قيود جهله وعقدة الشعور بعجزه، فقد بؤنا بإخفاق خطير، وأصبح خطر العالم العربي وما وراءه من الطاقات الإسلامية الضخمة خطراً داهماً ينتهي به الغرب، وتنتهي معه وظيفته الحضارية كقائد للعالم[1].

الثاني: قتل مملكة الفكر (الكتاب) بإفساد الوقت، وتفكيك تماسك المجتمعات، وإرخاء روابطها عن طريق إجبار عالم الفكر وقهره على التنازل إلى عالم

(١) جند الله ص ٢٢، وقادة الغرب ص٣٨.

الإعلام خاصة الوسائل الحديثة منه وأولها التليفزيون – ذلك أن من خواص التليفزيون أن من يجلس أمامه مستغرقًا فيه يجد نفسه تمامًا «وحدهُ» أمام عالم من الصور، فإذا أثبتت الإحصائيات أن كل فرد يقضى أمام التليفزيون ما متوسطه (٥) خَمْسَ ساعات فى اليوم – فإنَّ كل فراغه إذن يكون عزلة عن مجتمعه، وانسياقًا تامًا وتوهانًا كاملاً فى عالم الصور.

زد على ذلك الثورة الهائلة فى عالم الأجهزة الإليكترونية حيث يضع الفرد سماعة على أذنه ليصغى لصوت الموسيقى ويُرَسِّخُ بذلك عزلته عما حوله ومن حوله حتى وإن كان سائرًا فى شارع شديد الزحام[١].

وقد كسب هؤلاء هذه الجولة أيضًا، وانصرف الكثيرون عن الكتاب فاندثرت المكتبات وخمد توهجها حتى توارت الإبداعات بالحجاب، بينما يقضى الناس أوقاتهم مع السباحة فى عالم الصور على الشاشات داخل البيوت وفى الأندية، وداخل ما يسمى بالمكتبات الحديثة (الإليكترونية)، وفى كثير من البيوت الأخرى تجد موسيقى الروك والجاز تهز جدران الغرف، وأحيانًا تزلزل الأرض تحت عجلات السيارات، حتى أصبحت الموسيقى هى أداة التعبير عن دخائل العصور والمجتمعات، وباتت وهى المقياس المباشر للحالة النفسية والفكرية، وأداة التعبير عن المزاج العام. إلى الحد الذى استخدم البعض فيه خطأ وقد شاع بين مختلف الثقافات والأوساط والأعمار أن الموسيقى هى غذاء الروح – وهو ما يجعلنا نقول أن رحمة الله على الكتاب وزمن الكتاب، وعلى قارئ الكتاب.

الثالث: وهو حلول الصراع ضد العلماء لإيصال الشرور والمكاره إليهم فى خُبث وتورية لتنزل بهم الويلات وتحل عليهم اللعنات، فى مختلف الميادين والإتجاهات، وذلك لقناعة الغَرب كله بأن العداء الماثل فى العلاقة بين المسلمين من جانب والصليبية واليهودية والعلمانيّة وأذنابهم من الجانب الآخر – لهو شعور يغذيه رجال الدين والمشايخ، وقد أثمر عن مقاومة مخططاتهم وفضحها، وإبطالها ما أمكن، ومناهضتها ودحرها، وكثيرًا ما ترتد النتائج العكسية إلى نُحور مُفعّلى الصراع ومؤيديه بفضل مجهودات هؤلاء العلماء والمشايخ، وفى ذلك ثبت قولهم «وقد عُنينا عناية عظيمة بالحط من كرامة رجال الدين فى أعين الناس، وبذلك نجحنا فى الإضرار برسالتهم التى كان يمكن أن تكون عقبة كؤود فى طريقنا»[٢].

---

(١) ١٩٦٧ الإنفجار – بتصرف.

(٢) تبصير الأذهان ص١٠.

وبمقارنة شواهد الأقوال بحقائق الأفعال يمكن التأكيد على أن ما قالوه صار على أرض الواقع حقيقة يترجمه الإعلام وينطق به، شاهدُنا على هذا، ما يكون عندما يُسخر الإعلام إمكانياته ، ويحشد طاقاته للاحتفال مثلاً بأحد المشاهير كأن يقال عيد ميلاد الموسيقار، وذكرى رحيل ذات الموسيقار، أو المغنّى، أو المثال، وعلى ذات الدرب يسير الصراع ليشتغل الصناع – إنما هذه المرة لصناعة المشاهير (مشاهير الموسيقى والغناء، ومشاهير كرة القدم، والمنافسات الرياضية وعلى صدرها تقف السباحة الإيقاعية بخلقها الكريم وأدائها الجميل الذى يتجلى تمامًا عندما تتخلى السيدة السبّاحة عن لباسها لتمارس هوايتها ورياضتها وهى حافية عارية لتحظى بالورود وبالقبلات من المعجبين المفتونين، ثم تأتى صناعة النجوم والمثالين والرواد المشخصاتية[1]، وزنادقة الشعر الردئ المذرى أصحاب (السح الدح أمبو إدى الواد لأبوه) « وتحت الشجر يا وهيبة » .

أما مشايخنا الأفاضل الأجلاء، وعلماؤنا العظماء فقد رحلوا، ولم يتركوا غير ذكرى عن خيال الراغبين لا تغيب، وقد تركوا أذقانهم على الشجرة، كما ترك الباشا ذقنه على الشجرة – ولكنها شجرة عجيب طلعها، طيب عبقها، عظيم ظلها، ثابت أصلها (شجرة ذقن الباشا) عميقة الجذور التى تروى نفسها لبعد جذورها، وتنفع الناس بظلها، وتقدم لمن جاءها طيب العبق الأعلى من ريح المسك، وهى شجرة خضراء يانعة تنفع ولا تنتفع، تُفيد ولا تستفيد، إنهم كمثلها (العلماء والمشايخ أطال الله بقائهم ورحم من مات منهُم) .

واحتدم الصراع ضد دكاكين الوراقين التى كانت السبب المباشر فى قيام النهضة العلمية وفى إثرائها، كما أنها السبب الجوْهرى فى قيام الثورة الثقافية، وولادة العظماء فى اللغة، والفقه، والأدب، والعمارة، والطب، وصناعة البارود والمدافع، وعلوم البحار والفلك، والنجوم والهندسة والكيمياء... إلخ .

وقد تطورت تلك الدكاكين حتى تحولت إلى مكتبات عظيمة، ولو استمر بها الحال لأصبح للمسلمين شأن آخر على النقيض تمامًا مما هُم فيه، وما هم رابضون عليه من الخزى والتحلل، والجهل والتخلف، فتطور الصراع بهدوء فى هذه المرة، فتحولت اجتماعات الصالونات الأدبية وهى (ملتقى العلماء والفقهاء) إلى نواد اجتماعية تختلف فى رسالتها ووظيفتها على الإطلاق مما قامت عليه دكاكين الوراقين،

---

(٢) الممثلين والممثلات .

وما انبثقت عنها من صالونات ومجامع علمية عظيمة، فجاءت إلى الشرق الماسونية التى تعمل على اصطياد ضحاياها من المفكرين والمشاهير وتستقطبهم للإنضمام إلى محافلها بواسطة التعريف عن نفسها مستخدمة شعارات براقة، مدعية أنها جمعيات لا تتدخل فى الدين والسياسة، من بين هذه الشعارات:

* الماسونيّة مؤسسة حرة للبناء والعمل، ثم البناء الفكرى حققت خيراً، وحررت شعوباً.

* الماسونية العربية مستقلة بل تُوجه الماسونية العالمية لإنقاذ فلسطين[١].

وتحت شعار الحرية، الإخاء، المساواة نجح الماسونيون العرب فى استقطاب العديد من مشاهير الفكر والأدب والدين والسياسة، وقد اعتنق مذهب الماسونية قادة بارزون من أمثالهم «ضيَاء كوكب ألب» فى تركيا، وبعده «كمال أتاتورك» الماسونى الملحد، ثم بطرس البستانى فى العالم العربى، وميشيل عفلق وآخرون، وقد تغنّى البستانى ذلك النصرانى الذى بنى وأسس مدرسة خاصة على أساس وطنى تدرس فيها فكرة القوميات الغربية، وراح يشيد بالقومية العربية، فكان بذلك أول نصرانى يدعو إلى العروبة ويتكلم باعتزاز عن الدم العربى الذى يجرى فى عروقه[٢].

وما أن تم افتضاح دور الماسونية، وانكشاف حيلها التآمرية فى تدبير الإنقلابات والثورات والحروب والإضطرابات فى كثير من دول العالم حتى اتخذت لنفسها أسماء مختلفة مضللة مثل (الأليانس - الروتارى - الليونز - وجمعية بناى بريث) وما أدراك ما تلك الأندية أو هذه الجماعات، إنها جمعيات بديلة عن المحافل الماسونية الرسمية المعلنة أو معاونة لها حسب نظرة المجتمع والظروف السائدة، وعلى ذلك تكون الماسونية قد لعبت كما أنها تلعب الآن الدور الأهم والأخطر، كما أنها نفّذت ولا زالت تنفذ الأعمال العضمى المسندة إليها، حيث أنها سبقت الإعلان عن بروتوكولات حكماء صهيون، وعملت فى قناع وغفلة، لخدمة الصهيونية خاصة والصليبية عامة الصريحة منها وغير الصريحة، المعلنة وغير المعلنة.

ثم انتشرت تباعاً المقاهى السياحية فى البلدان الإسلامية خاصة فى المدن ذات الطابع الدينى، والصبغة الروحية ابتداء من طهران وبغداد وانتهاءً بالجزائر والرباط، ولعلك تضم صوتك إلى صوتى فى أن انتشار مثل هذه المقاهى وهى مصدر الأدخنة

---

(١) تغطية كاملة للماسونية - دورها - وسائلها - أهدافها - ضمن كتابنا - المؤامرة الكبرى.

(٢) الإسلام والحضارة الغربية ص٦٢ أ. محمد حسين.

والتبغ، والخمور، والكحوليات، وروادها هم عجاج الرجال وعاريات النساء، المختلطون بشكل مفضوح فاضح للعورات، ناشر للرذيلة، وعليها يَنْتهى لهيب النظرات بالحرام عند اللقاءات وسط أجواء الصخب والموسيقى والطبل والزمر والرقص – حين يخْتلط الحابل بالنابل – ما ذلك فى حقيقته غير تحقير لدور المساجد، وأمكنة العبادات حتى فى أكبر العواصم الإسلامية وفى أشهر ميادينها على الإطلاق.

* ومع الثورة الهائلة التى يعيشها العالم الآن فى نظم المعلومات ومع انتشار الحاسب الآلى (الكمبيوتر) الذى أصبح فى حوزة ١٥ : ٢٠٪ تقريبًا من دول العالم الثالث (النامى) جاءت شبكة المعلومات الدولية (إنترنت) وهى تحمل بين طياتها ملايين المواقع التى تذيع على مدار الساعة أفلامًا للزنى واللواط والشواذ والنُّشُوذ (الرجال مع الرجال، والنساء مع النساء) والعاهرة يباشرها رجلان أو ثلاثة فى آن واحد، وانتشرت سريعًا من نوع جديد ما تعرف بأندية (الإنترنت) ومقاهى الإنترنت التى حلت الآن محل ما كان يعرف بصالونات العلماء والفقهاء الأدبية، ودكاكين الوراقين.

وإن كانت هناك إستخدامات نافعة للإنترنت إلا أن ضررها أكبر من نفعها لشيوع استخدامها، وسهولة تأثيرها على الشباب فى ظل التركيبات النفسية والعقد المزاجية فى ظل الأوضاع السائدة (اقتصاديًا – وعمليًا – وتعليميًا – واجتماعيًا) الأمر الذى يحتم تضافر الجهود بين علماء الدين والمؤسسات الحكومية والأهلية، والأسرة، وتحقيق انسجام تام بين هؤلاء جميعًا ضمن برنامج عمل وطنى جاد يرمى إلى تقنين تشريع خاص لهذه الظاهرة المعاصرة المدمرة التى سحبت البُساط من تحت أقدام علماء الدين الإسلامى، ورجال الدين المسيحى فى عالمنا العربى . وقد حلت بالجهالة محل العلم وبالظلمات محل النور، وبالرذيلة محل الفضيلة، مع مراعاة أنه لا شىء يخدم الإسلام مثل انتشار وسائل الاتصال السريع وفى مقدمتها الإنترنت، والعلم الحديث وعلى رأسه معامل الترجمة الفورية، والتكنولوچيا وتتقدمها الفضائيات، ثم الإنفتاح الإعلامى الهائل بين بنى البشر فى ظل ما توفره وسائل الإعلام الجديدة والتكنولوچيا الحديثة من تقريب بين الثقافات والشعوب.

فرسالة الإسلام سوف تصل بسرعة البرق وبوضوح الصور الحديثة وبقوة صواريخ الفضاء – إذا ما أحسنا توظيف المتاح لدينا من هذه الثورة الإعلامية الخطيرة والغزيرة، فكلما كانت هناك جامعات أنتجت بحثًا علميًا من أجل الحقيقة فسوف يكون الإسلام وحده هو الحقيقة الأكيدة فى عالم يموج بالأباطيل والأساطير والأكاذيب.

وإذا كان الإسلام قد ساد العالم خلال القرن الأول الهجرى عندما طبق المسلمون الأوّل الإسلام النظرى على الحياة العملية فإن ذات الشيء من الممكن حدوثه تارة أخرى بنفس السرعة أو أشد بحيث يصير من الممكن القول بأن الإسلام هو مفاجأة السنوات القادمة التى من الممكن أن لا نرى فيها عَالِمًا من العُلماء سبقته (عَالَمَه) من العوالم التى حققت أمجادًا وجمعت أموالاً وسحبت أضواء حتى صارت نجمًا يتلألأ فيما يُسمّى «سماء الفن» وسوف لا نرى فيها كذلك شيخًا وقورًا وفقيهًا نافعًا لم يستطع الحياة بعلمه ولا بفقهه وخفتت أضوائه كمثل ما كان – فيتحول حينئذ الشيخ الجليل قارئ القرآن الكريم عن علمه النافع وعمله الصالح إلى باحث عن الأموال والأضواء والشهرة، وكان القرآن الكريم لا يُطعم جائعًا، ولا يستر عريانًا فتحول «بقدرة قادر» بين عَشيّة وضُحاها ليغنى للناس (يا حلو صبح يا حلو طل – يا حلو صبح نهارنا قُل) وصبّح يا جميل – يا جميل صبّح ﴿**ومن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**﴾ [الإسراء: ١٥].

* ثم تأتى المدرسة البذرة الأولى لحركة المجتمع وتطوره، والمقياس الشرعى لتطوره أو تخلفه لتشهد حجمًا من الصراع كبيرًا وليُمارس ضدها دورٌ سياسى كبير ذو أثر عظيم خطره، بالغ ضررُه، وذلك لأننا علمنا متى وأين وكيف نشأت المدرسة، وعلمنا كذلك دورها الهائل ونفعها العظيم، ولمسناه حقيقة تاريخية فى أنفسنا وآبائنا وأجدادنا ثم نُوَرثُهُ أثرًا عظيمًا لأبنائنا من بعدنا.

وتتمتع المدرسة باستقرارها فى قلوب المسلمين لأنهم الرواد فى نشأتها وتحديد مناهجها وتوظيف أبنائها، وتدبير موارد الإنفاق عليها وعلى طلابها حتى تخرج فيها أبطالٌ أفذاذٌ وعلماء نوابغ، وصناع مهرة، وأطباء، ومهندسون، وكيميائيون، وحرفيون، سادوا العالم بعلمهم وعملهم وبأخلاقهم وفنونهم وإخلاصهم، وابتكاراتهم، وتحديثهم.... إلخ.

ولو قُدر للمدرسة الإضطلاع بدورها على النحو السّلفى لانتفض أبناؤها فى وجه المخططات الإستعمارية، والهجمات الصليبية الشرسة التى تستهدف قارتى الإسلامى (آسيا وإفريقيا).

فلم يكن أمام النصرانية والموسوية إلا حَل واحد هو تدمير الإسلام، فَكَانت صيحتهم «ها قد هبت النصرانية والموسوية لمقاتلة المحمدية، وهما تأملان أن تتمكنا من تدمير عدوتهما»(١).

فكانت طلائع المعركة فى المراحل الأولى للتعليم بغرض تشكيل ثقافة جديدة

(١) استعباد الإسلام ص٤٤.

عند الأطفال أصحاب العقول البيضاء فى هذه السن المبكرة، فعمل الإستعمار فَوْر نزوله بالأرض التى تدنست بوجوده على إهانة علماء الدين، والفقهاء، والمعلمين والحط من كرامتهم، وقطع أرزاقهم، كما اجتهد الإستعمار مبكراً لتغيير التعليم وتطويعه منهجاً وأسلوباً، فحلت المدارس التى أقامتها بعثات التبشير محل المدارس الإسلامية، من أجل مساومة الطلاب على التنصير مقابل توفير مكان فى المدارس، وأقام فى كبريات الدول العربية الإسلامية مدارس مسيحية لتعليم الدين المسيحى، والدعوة إلى التنصير. كرغبة أولى وضرورة ملحة لتنصير المجتمع الإسلامى بخطى حنين، ولإحداث خلخلة فى عقيدته الراسخة، وإصابة كيانه بفيروسات العَتَه والعتل والمجون لإصابة وجوده فى مقتل.

غير أن هذه المدارس لم تجد إقبالاً فى العالم الإسلامى على عكس ما كان فى بعض دول إفريقيا شمالاً وجنوباً.

لذلك اجتمع مجلس الكنائس العالمى، وتحدث فى المؤتمر «صمويل زويمر» رئيس المجلس فقال (ما دام المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية فلا بد أن ننشئ لهم المدارس العَلْمانيّة، ونسهل التحاقهم بها، هذه المدارس التى تساعدنا على القضاء على الروح الإسلامية عند الطلاب)[1].

وتلك هى المدارس التى جعلت العالم كله يشتغل بنظرية دوران الأرض وهل هى بيضاوية أم كُروية، ثم تدريس س + ص = – صفر مثلاً ... وهكذا.

وقد شهدت منطقتنا العديد من المدارس العلمانية التى أنشأها هؤلاء لمناهضة الإسلام ومحاربة المدارس الإسلامية والجامعات العالمية الإسلامية فى كل من مصر والعراق وسوريا والسعودية، والباكستان، وتونس، والجزائر، والمغرب – وهى البلدان التى تخرج فيها رواد حركات التنوير فى شتى الميادين وحملوا بأيديهم مشاعل الحضارة فى العالم كله، ولم يقتصر منهج الإستعمار على محاولات إلغاء المدارس الإسلامية فحسب، أو تقييد حركتها – إنما أخذ يتوسع فى إقامة المدارس والجامعات العلمانيّة التى لن تحوى مناهجها أحكام الشريعة من صلاة وزكاة وجهاد وقتال الأعداء – وصلات الأرحام وحقوق الجار وحرية الوطن والمواطن وكرامتهم – لكنها ملأت المناهج الدراسية بعلوم لا ينفع العلم معها ولا يضر الجهل بها – وتلك هى أهم الأدوات لإفساد نظم التعليم.

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى ص٨٢.

ولما آتت الفكرة أكلها وطابت ثمارها فى تحويل اهتمامات الطلاب والدارسين لإستيعاب وتدارك تلك النظريات العلمانية قال أحد المبشرين المهتمين بتنصير المسلمين، ويدعى المبشر تكلى «يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربى العلمانى، لأن كثيراً من المسلمين قد زعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية وتعلموا اللغات الأجنبية»(١).

ثم تأكدت تلك الحقيقة عندما قالوا «أن أهم الأساليب للوصول إلى تدمير أخلاق المسلم وشخصيته يمكن أن يتم بنشر التعليم العلمانى»، كما أكدت المبشرة «آن ميليغان» تلك الحقيقة عندما نسجت على ذات المنوال بقولها «لقد استطعنا أن نجمع فى صفوف كلية البنات فى القاهرة بنات آباؤهن باشاوات وبكوات، ولا يوجد مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحى، وبالتالى ليس هناك من طريق أقرب إلى تقويض حصن الإسلام من هذه المدرسة(٢).

* ومؤخراً سادت مفاهيم باطلة ومزاعم كاذبة عن أن الإسلام دين قَهَرَ المرأةَ وسَلَبَها حُريَتها وجَعَلَها رهنَ القيد والتخلف بمرافقة الدار – وانطلقت بذلك دعاوى المضللين والكافرين المنادين بحرية المرأة، ثم انصاف المرأة، ثم مساواة المرأة بالرجل، وأخيراً كانت الدعوة إلى تسييد المرأة، لا لشىء إلا لأنهم يرون أن إخراج المرأة المسلمة من دينها يعنى خروج جميع الجيل الذى تربيه، ويخرج معها زوجها وأخوها، وتصبح بذلك أداة تدمير قوية لجميع قيم المجتمع الإسلامى الذى يُحاوِلون تدميرَهُ، وإلغاء دوره الحضارى القائد فى العالمين.

ولا يزال الصراع متأججًا وإن اختلفت أدواته، والحوار مسترسلاً وإن تعددت ألسنته.

* * *

رابعًا: بائعو الوهم

(أ) الغارة

يسلك الكافرون ومن نحا نحوهم وسار على دربهم فى حربهم الضروس ضد الإسلام والمسلمين مسالك شتى وممرات متنوعة لا نستطيع أن نوجزها الآن حصراً لأنها تتنوع وتتطور وتتحور، غير أننى أؤكد على أنهم قد استطاعوا تمزيق أمتنا الإسلامية

(١) قادة الغرب ص٥٠ نقلاً عن التبشير والاستعمار ص٨.

(٢) التبشير والإستعمار ص ٨١.

بقوتهم العسكرية التى مكنتهم من إصابة أمتنا فى جسدها الهزيل، وقد عمل هؤلاء على إقامة أنظمة حكم ديكتاتورية متضاربة الوسائل، والأهداف، وترتبط بسياستهم أولاً وأخيراً.

كما تم تقسيم تلك الأنظمة إلى تقدمية ورجعية، رأسمالية واشتراكية بعضها تبع للشرق، وبعضها تبع للغرب، وحاربوا جميعاً كل معارضة لمسيرة الذل، ووقفوا أحجار عثرة أمام كل صحوة خير تصحح المسار، وتعيد للأمة قوتها وعزتها.

ونحن ههنا نشير إشارات موجزة إلى ما طرأ على بعض وسائلهم القديمة علّنا أن نوقظ ثُبات القرون والنائمين فى القبور، ونحن نُنبّه الغافلين إلى حقيقة الدور الذى يلعبه بائعو الوهم (المبشرون) وهم الأداة التى استخدمها الغرب للقضاء على الوحدة الإسلامية التى تجمع آمال الشعوب المسلمة وتؤلف القلوب فيما بينها.. ذلك لأن الوحدة الإسلامية باتت وهى الخطر الداهم الذى يحدق بهم ويؤرق حياتهم ويقض مضاجعهم، وفى ذلك يقول القس سيمون «إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية، وتساعد على التخلص من السيطرة الأوروبية، من أجل ذلك يجب أن نحول بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية»[1].

نعم لقد عرفوا ذلك تماماً، ورأوا أن الوحدة الإسلامية التى تجمع آمال المسلمين فى مصب واحد، هو خدمة الإسلام ونصرته وعزته، وهى بذلك تشكل جداراً صَلْبًا تتحطم عليه خططهم الهادفة إلى تدميره، ويفسد عليهم مساعيهم نحو تحقيق سيطرتهم على العالم.

نعم، لقد عرفوه حقًا بالتجربة العلمية والعملية وبالدراسة المستفيضة التحليلية والميدانية، عرفوه تماماً يوم حاولوا السيطرة على الأمة فى الحروب الصليبية فهب إليهم الإسلام بارزاً فى شخص صلاح الدين الأيوبى – رحمه الله – وقد حطم البطل كبرياءهم، وأرغمهم على التراجع الذليل، كما وجدوا فى الجزائر فُرسانًا، وواجهوا أبطالاً رجالاً كباراً وصغاراً، وقد لقّنوا الفرنسيين درساً لن يُنسى مهما طال الزمان.

وقد لاقوا كثيراً ممن خيبوا سعيهم، ودحروا كيدهم، وأبطلوا بغيهم – وهم كثيرون من بينهم عمر المختار، وعز الدين القسام، وعبدالله عزام، وعمر مكرم، والوهابيون فى الحجاز، وقد برزوا لهم جميعًا كل فى زمنه يحمل راية الإسلام بإيمان وصدق وحق. .. . .

---

(١) الخائفون من الإسلام ... لماذا؟ ص ١٣ محمد نعيم ياسين.

ولما كانت فرنسا صاحبة أكبر المواريث فى الحقد والكراهية ضد العرب خاصة، والمسلمين عامة بعد ما نزل بها من هزائم كبيرة ومتتالية، وانتكاسات مُدْمية على أيدى الإسلاميين الذى كسروا شوكتها في مصر، وسوريا، ولبنان، والجزائر؛ فإنها قد وجدت نفسها مكرهة لإظهار التعقل علناً، وادعت صداقتها للعرب، أمّا سِراً فإن لها شأناً آخر.

فها هو وزير المستعمرات الفرنسية «فيليب فونداسى» يصرح فى كتابه «الإستعمار الفرنسى فى إفريقيا السوداء» على الصفحة الثانية - «إن من الضرورى لفرنسا أن تقاوم الإسلام فى هذا العالم، وأن تنتهج سياسة عدائية للإسلام وأن تحاول على الأقل إيقاف إنتشاره».

ذلك هو الدور الفرنسى الصليبى الرائد الذى عبّر عنه نابليون بونابرت حينما دعا إلى قيام دولة غريبة فى المنطقة للحيلولة دون قيام وحدة عربية، كما أنها هى ذاتها فرنسا التى قدمت لإسرائيل هدية عمرها التى ما كانت لتخطر على بال قادتها حينما قامت فرنسا ببناء مفاعل «ديمونة» الذرى فى صحراء النقب فى المسافة بين الأردن ومصر - كمكافأة لإسرائيل نظير اشتراكها فى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦م[١].

عموماً، فإن التبشير يظهر كأحد الأسهم المارقة التى تُطلقها إرساليات التبشير عندما يلوح أمامها الجهل أو الفقر أو التخلف أو ترف الحياة ولين العيش.

ولما كانت الجزائر صاحبة اللطمة الأكبر على جباه الفرنسيين طوال تاريخهم فإنها تعرضت ولا تزال لهجمة تنصيرية شرسة، سنعرض لها فى حدود ما تيسر لدينا وما وفرته لنا بعض المصادر لنقف معاً على حقيقة تفاقم ظاهرة التنصير فى الجزائر:-

تتعرض الجزائر ومنذ فترة طويلة إلى غارة تنصيرية مُنسَّقة فى أساليبها، منظمة فى برامجها، تضطلع للقيام بمهامها عشرات المنظمات والجمعيات التنصيرية المسمّاة (إرساليات - أو - بعثات التبشير) التى تتحرك بكل حرية فى الأوساط الشعبية، والجماهيرية - ومن دون إزعاج من السلطات أو المؤسسات الرسمية الجزائرية.

وعلى الرغم من الضجة الهائلة والصرخة المدوية التى أحدثتها وسائل الإعلام الجزائرية الناطقة باللغة العربية من أجْلِ فضح ظاهرة التنصير التى تفشّت وبشدة فى الجزائر، إلا أنها لم تُحرك ساكناً، وقد استغلت تلك المنظمات والجمعيات الأوضاع الأمنية المتدهورة، والإقتصادية الخانقة، والجبهة الداخلية المنهارة، فنفذت إلى الشباب

---

(١) تفصيل الموضوع كاملاً فى - المؤامرة الكبرى - للمؤلف.

تحديداً، كما أكدت الأرقام التى وُضعت أمام الجهات المعنية فى الجزائر وتلك التى بحوزة هذه المنظمات التنصيرية أن «عشرة آلاف» (١٠٠٠٠) شاب جزائرى قد اعتنقوا المسيحية، وقد أفادت الجهات المختصة برصد ظاهرة التنصير، ومن يدعمها أن الكنيسة الكاثوليكية تعتبر أنشط الجمعيات التنصيرية برئاسة القس (هنرى تسيى) تليها البروتستانتية برئاسة الأمريكى الأصل - الجزائرى الإقامة (هوج جونسون) - رئيس الجمعية البروتستانتية، بالإضافة إلى جمعية أخرى أشد نشاطاً هى جمعية القلب المقدس برئاسة (كاميف بيار) المولود فى «وجدة» بالمغرب، ويقع مكتب جمعيته فى حى [ديدوش مراد] العريق بوسط الجزائر العاصمة.

وقد أرجعت بعض القوى السياسية، وبعض البرلمانيين الجزائريين أن هذه الغارة التنصيرية على البلاد إنما مردها إلى الفقر المدقع الذى يعيشه ما يربو على ٨٠٪ من الجزائريين - وهم أصحاب ثانى أكبر احتياطى بترولى عالمى بعد السعودية إلى عهد قريب - وقد استغل المنصرون حالة الفقر هذه أحسن استغلال، فبادروا إلى تنصير الشباب الجزائرى المُحْبَط - التائه - الفقير - الجائع - لمساومته علناً على توفير أو تسهيل مهمة الحصول على تأشيرة وإقامة وفرصة عمل فى إحدى دول الغرب التى يرغب الشباب فى السفر إليها.

وقد طالب بعض النواب البرلمانيين الحكومة بالتحرك الفورى والجاد لوقف الغارة التنصيرية على الجزائر، فيما أرجع وزير الشئون الدينية الجزائرى أن بعضاً من هذه الطروحات التنصيرية مرتبطة بالحركة الإستعمارية العامة.

ويجدر القول أن القس «هوج جونسون» جاء إلى الجزائر مُوفَداً من قبل كنيسته الأمريكية إلى الجزائر عام ١٩٦٣م، وقد أقيمت على يديه أول كنيسة فى مدينة (تيزى وزو) القبائلية فى العام ذاته، بعد أن تمكن من الحصول على اعتمادات رسمية من قبل الحكومة الجزائرية، وقد بدأ هوج مهامة التنصيرية بأسلوب استراتيجى، حيث ينصر المسلمين (الذين نعتناهم سلفاً) ويكلفهم بمهام الإشراف على الكنائس، ساعده على ذلك نائبه الجزائرى المولد والجنسيّة الذى تنصّر عام ١٩٧٠.م

وقد أكد المراقبون لهذه العملية أن المنصّرين الغربيين والجزائريين يترددون على مرجعياتهم الكنسيّة فى فرنسا، وأمريكا، وسويسرا، كما أنهم يتلقون مساعدات مالية جبارة يتم تخصيصها لإعالة عشرات الآلاف من العائلات الفقيرة، وتحديداً فى المناطق القروية خاصة تلك التى تقع فى المناطق القبائلية.

وعلى الرغم من أن الصحافة الجزائرية قد سلطت الأضواء على القس الأمريكى

(هوج جونسون) ونشاطاته التنصيرية المكثفة فى مختلف الولايات الجزائرية إلا أنه ما زال يصول ويجول كما يحلو له كما قال بعض النواب الجزائريين – ويحدث بشكل مطرد مع نشاطات «هوج» انتشاراً واسعاً لنُسخ الإنجيل وأشرطة الكاسيت، وأشرطة الفيديو باللغة العربية، وباللهجات القبائلية فى العديد من الولايات، وكلها يتم طباعتها ونسخها فى بعض الدول الغربية الرائدة فى عمليات التنصير والداعمة لها، الأمر الذى يوحى بأن مشروعاً متكاملاً لتنصير الجزائر قد أعدّ سلفاً، وسوف يقع حقيقة من بعد أن يأتى المساس مستقبلاً بوحدة الجزائر الوطنية والترابية خاصة إذا ما علمنا أن تلك النشاطات التنصيرية أفضت إلى إيجاد أقلية مسيحية حقيقية فى الجزائر.

وقد برز على ساحة التنصير مؤخراً قسّ فرنسى ظهر على الساحة بقوة هو «فيليب مارتيناز»، وكان هذا ضابطاً فى الفرقة العسكرية الفرنسية الخاصة حتى ١٩٨٠م، وبعد أن اعتزل وظيفته، أو أحيل إلى التقاعد قرر أن ينضم إلى جمعية إنجيلية نَفّذت العديد من النشاطات فى إفريقيا وتحديداً فى تشاد، وقد زار هذا القس الجزائر عام ١٩٩٩م، وكان يخطط لفتح كنيسة فى (تيزى وزو) القبائلية وقد تمكن بالفعل من إقامة فرع للكنيسة الإنجيلية فى هذه المنطقة لتكون أول نتاج للجمعية الإنجيلية الجزائرية، وذلك بعد الحصول على اعتماد رسمى من الحكومة الجزائرية.

وحقيق بنا القول بأن السلطات الجزائرية ما لم تُحرّك ساكناً، وتنتفض لأجل دينها وسلامة مواطنيها، ووحدة أراضيهَا، بوضع حد لهذه الغارة التنصيرية فى الجزائر فإن الزحف التنصيرى سيقض مضجع الجزائر، ويضيف إليها أعباء جديدة ومتاعب جسام، وصعاب جمة.

وهذه هى إحدى صور ما يُسمّى بحوار الديانات الذى يبغونه ويعملون لأجله، ويسعون لإقامة جسور العلاقات مع كبريات الدول الإسلامية لفتح أبواب تلك الدول أمام إرساليات التبشير المسيحى، وإذا رفضت فإنها بلاد الاضطهاد الدينى الواجب عقابها.

ولعلنا نكون قد قدمنا تفسيراً لأحوال الجزائر الآن – ونكون قد أجبنا فيه عن أسئلة السائلين عن حقيقة الإرهاب فى الجزائر – إنه الفعل التنصيرى من قبل عشرة آلاف جزائرى تنصروا وهم يلقون دَعْمًا كبيراً من جهات خارجية مُعيَنَة، ورد فعل إسلامى أصولى يقضى بقتل المرتدين – وهو حكم شرعى لا حرج فيه. بينما يدور هذا الصراع فى ظل غيبة للدولة والنظام الحائر بين استئصال شأفة الإسلاميين وهو أمر

بعيد المنال، وبين مناهضة جماعات التبشير ومن ثم التعرض لويلات خارجية ستفتح على الجزائريين نار جهنم، وما زال الصراع مستمراً بين المنصرين والمتنصرين من جانب وحركة الجهاد الإسلامية، وجبهة الانقاذ الوطنى الإسلامية من جانب آخر.

* * *

(ب) أقتراحات نهائية

تفردت إحدى القنوات الفضائية العربية فى موقعها على شبكة الإنترنت بنشر تقرير أصدرته لجنة التنصير بكنيسة كليفلاند البروتستانتية فى أمريكا، يتكون التقرير من أربع وتسعين صفحة، يتناول تجربة التنصير فى عدد من قرى دولة الجزائر ومدنها على مدى خمس سنوات متتالية، واختتمت اللجنة تقريرها بإصدار مُلخّص يحتوى على أهم ما توصلت إليه اللجنة من توصيات ونصائح تحت عنوان (إقتراحات نهائية) تدور كلها حول أسلوب التنصير وعمل المنصرين بين عوام الجزائر بين الذين أسمتهم الدراسة «المسلمين الشعبيين».

اعترف التقرير فى صفحاته الأولى بصعوبة التنصير بين المسلمين إلا إذا كانوا طائفة من ثلاث على وجه التحديد:

(أ) أن يكونوا من جماعات صوفية.

(ب) أن يكونوا تابعين لمذهب شيعى.

(جـ) أو تابعين لطائفة القاديانية.

وذلك لأن هذه الطوائف الثلاث تشترك مع عقيدة النصارى فى قبول ما يدّعون بالحلول الإلهى فى الإنسان، وهو ما يمهد الطريق أمام المنصر لقبول عيسى المسيح إبناً لله ﴿**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الصافات: ١٥٩].

ولكن ماذا عن عوام المسلمين فى الجزائر (المسلمين الشعبيين)؟

وإلى أى مدى استطاعت الإرساليات التنصيرية تحقيق أهدافها؟

وقد جاء فى التقرير الذى تناولته بالعرض والتحليل فى مراحل لاحقة أكثر من وسيلة إعلامية من المهتمين بهذه القضية، أن التقرير المتحدّث عنه أكد أن ثوابت المسلم الجزائرى حتى الشعبى منه كما يقولون – ليس من السهل تحريكها أو قبول المساومة عليها أو حولها، أو التنازل عنها، ولذلك لم تكن هذه النتيجة المفجعة للإرسالية مع رجل الشارع الجزائرى هى نهاية المطاف، ولم تكن هذه هى الصخرة الوحيدة التى تحطمت عليها طموحات الإرسالية، واستطرد التقرير قائلاً:

أما المسلم الجزائرى العلمانى الذى تأثر بالأفكار الأوروبية، وموجة الإلحاد التى تجتاح الشارع الغربى اليوم فإنه لم يتخلص بعد من تأثيرات الجانب الإيمانى فى الإسلام إلى الحد الذى يمكن وصفه أحياناً بالخصم الروحانى.

وتابعوا: «لقد سلّموا أنفسهم جميعًا للغيب، لعدالة الله التى وعدتهم آيات القرآن، فجعلت الواحد منهم مطمئنًا وراضيًا بما هو فيه، ومؤمنًا تمام الإيمان بما أُخبر به».

لقد وقعت تلك الإرساليات فى حيرة وحرج شديدين أمام الثوابت الراسخة فى حياة المسلمين وهم فيها سواء الخاصة والعامة، فكانت التوصيات والإشارات واضحة لتلك البعثات التنصيرية بضرورة الإنتباه الشديد، وأخذ الحذر التام، والحيطة الكبيرة عند مواجهة مسلمى الجزائر على اختلاف أعمارهم خاصة عند استمالتهم إلى النصرانية، وبخاصة عند التأكيد على أن يسوع ابن الله، أو أنه المنقذ المخلّص، وذلك لأن المسلم الجزائرى لا يقل تمسكًا فى عقيدته عن الأصوليين المصريين، والوهابيين السعوديين – بحسب تعبير التقرير – وذلك لأن أهل الأصولية هم أصحاب الوعى والإدراك وهم بالتالى لا يعرفون غير عيسى المسيح وأنه نبى له أم صديقة هى «مريم إبنة عمران» – وقد كانا كما قال تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وهو بذلك على الضد من اليسوع الآخر الذى عند النصارى – وهو (المنقذ) كما يقولون.

وقد انتهت التجربة التنصيرية فى الجزائر التى استمرت مدة خمْس سنوات متتالية إلى ست وثلاثين نصيحة تحدد طبيعة العمل، وتسهل مأمورية أفراد تلك الإرساليات التبشيرية، وقد ذكروها على النحو التالى:

١ – غالبًا ما تكون الملابس الغربية التى يرتديها المنصرون موضع انتقاد ونفور من المسلمين، ولذا فمن الأفضل للمنصر أن يرتدى زى المنطقة التى يعمل بها، وكذلك زوجته أو العلامات اللائى يساعدنهُ فى الإرسالية، كما يجب على المبشر أن لا يرتدى شورتًا فى زيارته للمسلمين، ومن الخطأ جدًا على البنات أو النساء المشاركات فى البعثة أن يرتدين ألبسة قصيرة، تسبب لهن الحرج عند جلوسهن على حصائر مع النساء المسلمات.

٢ – عند جلوسك بين المستمعين لدعوتك – يجب أن تختار مقعدك وموقعك بعناية شديدة، فيكون الجميع أمامك، تراهم وتنظرهم بعينيك، فلا تسمح لأحد أن يحدثك من مستوى أعلى أو من نافذة علوية أو طابق علوى، كما عليك أن تَحْذَر من أن يجلس واحد خلفك لئلا يسمح له موقعه بعمل إشارات تطعن فيما تقول.

٣ – ليس من الحكمة أن تتحدث مع مسلم عن إيمانه أو إيمانك الشخصى فى حضور مسلم آخر، فذلك يجعله على الفور مدافعًا بحرارة ومُرتَقيًا بدينه، خاصة إذا كان فى القرية سكان غير مسلمين، يشاركونهم فى الأرض وفى السيادة.

٤ – من الحكمة أن يكون معك فى دعوتك رجل آخر واحد، أو امرأة واحدة فقط منعًا للإستثارة.

٥ – فى سلوك المسلمين عامة وفى الجزائر خصوصًا، كثير من الإحترام والتبجيل وكرم الضيافة لضيوفهم، حتى ولو كان الضيوف من غير دينهم، فربما يحضرون لك كرسيًا عند زيارتك لهم ويرغبونك فى الجلوس عليه، وهم جلوس على الأرض، فلا بد أن تتجنب ذلك مهما كان قدر الضغط عليك، دعهم يرونك مجرد إنسان تكون كما يكونون، ولا تَنْسَ أنهم يستعملون الحصير الذى يجلسون عليه فى صلاتهم، ولهذا فهم يخلعون أحذيتهم قبل الجلوس عليها، ولا بد أن نفعل مثلهم.

٦ – لا بد أن تراعى قانون المكان فى مجلسك، فتكون جالسًا أثناء الوعظ إذا كان الكل جلوسًا، وتكون واقفًا إن كنت فى مكان عمل أو سوق أو فى مكان مسموح فيه الإجتماع.

٧ – اللغة العربية عند المسلمين تُسمّى «لغة الملائكة» وهم يبدون فى الوقار والإحترام للنص العربى ويعتبرونه صَكًا مقدّسًا فى مواجهة النص الفرنسى الذى يذكرهم بالاحتلال ، وتستطيع أن تستفيد من هذه الخزعبلات، مبينًا لهم أننا نحب الحروف العربية، ونجد المتعة فى قراءتها، واحذر أن تقرأ نصًا بلغتك غير العربية، حتى لو أن تلجأ لكتابته على لافتة دون أن تقرأه.

٨ – صَلِّ قبل لقاء المسلمين، وصَلِّ وأنت بينهم، وبعد أن تتركهم، أن يسكن سيدنا قلوبهم.

٩ – قبل اللقاءات أكتب أهم النقاط التى سيدور حولها النقاش، واستخدم كثيرًا كتابك المقدس، وضَع خطوطًا تحت المواضع التى تناسبك، لتجدها سهلة ومريحة.

١٠ – اعتمد على الروح القدس لتهديك إلى هدفك فربما تُقتاد إلى هدف آخر.

١١ – ابدأ وعَظْكَ لعشر دقائق حول التقاء الأديان (حوار الأديان) ، والبُشر فى المولد والموت وفى لقاء اللهَ بعد الموت.

١٢ – تعامل فى موضوع واحد طوال الوقت، فإن حقيقة واحدة تكون كافية للقاء واحد.

١٣ – يُعجب المسلمون بشجاعة المتحدث عن معتقداته، فلا تخش أن تتكلم بالحقيقة كاملة، ولا تحذر إلا أن تجرح دينهم ومعتقداتهم أو تسىء لقرآنهم ونبيهم وعباداتهم.

١٤– لو سُئلت سؤالاً لا تعرف إجابته، أو استشعرتَ فى الإجابة ما يعوق أهدافك، فإن من الأفضل أن تعتذر بعدم علمك، وترجئ الإجابة لوقت آخر، وتُشغِل سامعيك بسرعة موضوعك أنت الذى تعظ فيه.

١٥– قاعدة أساسية للوعظ أن تذكر بين الحين والحين ما هو متفق عليه بينك وبين المسلمين.

١٦– استعن دائمًا بأحد الكتب التى تهتم بالرد على اعتراضات المسلمين، واحتفظ بصفحة واحدة لكل اعتراض، واحذر أن تُستَدْرَج لمناقشة اعتراض لم تُعدّ نفسك لمناقشته.

١٧– من الحكمة تجنب مناقشة الثالوث ولو للحظة واحدة، ولو كان ذلك بإيضاحات مثل: إن الثالوث كالرجل الذى له ثلاث وظائف، أو كالشمس متعددة الأشعة والوظائف، فإن تلك الإيضاحات تناسب العقل الغربى لكنها لا تقنع المسلم.

١٨– تذكر أن المسلم لا ينحنى أبداً ليسوع، سيداً منفرداً عن الروح القدس، فلا تحاول إقناعه بذلك، واحرص أن تُقنعه به فى لقاء آخر.

١٩– لا تحاول أن تستخدم مواهب الروح القدس مثل التكلم بالسنة غريبة (كتحضير الأرواح واستخدام 'لعفاريت) أو عمل معجزة أمامه، لأنه سوف ينسب ذلك إلى الأرواح الشريرة، ولن يقبل المسلم إلا ما تتحدث به إلى عقله، وبلُغَتِه ستجذبه إلينا.

٢٠– تذكر أهمية الكتب المقدس ولا تحاول أن تُهديه إلى مسلم إلا بثمن، واعلم أنه سوف يرفض شراءه منك، لأنه لا يحمل الإصطلاح الإسلامى (بسم الله الرحمن الرحيم)، فذكِّره بأنه حينما يشترى خُبزاً فلن يجد عليه هذا الإصطلاح، إنما هو يقول (بسم الله الرحمن الرحيم) ويأكل، فلم لا يفعل الشيء نفسه مع كلمة الرب التى هى خُبز الحياة؟

٢١– المسلمون فى الجزائر مثلهم مثل كل المسلمين، يتعاملون مع القرآن بكثير من الإحترام، والتقديس، والرهبة، فحاول أن تتعامل مع الكتاب المقدس بنفس القدر أمامهم فلا تحط من قيمته.

٢٢– كثير من المسلمين الشعبيين تائهون عن الحقيقة، يبحثون عن المنقذ الذى يواجهون به حالات الطرد والتشريد والجوع والإضطهاد التي أصابتهم حتى الموت خلال السنوات الأخيرة، ومن الواضح أن الرب يهيئهم حتى تُعمل برسالته بينهم.

٢٣– إن السيد ينادى الشباب أن يخدموه بين المسلمين، بكثير من الصبر الذى

أتى بالعظمة للرب يوم نقف أمام العرش ويصيح رجل بصوت عال « الخلاص لربنا الجالس على العرش ومعه الخروف » (١١١).

٢٤- المسلمون يُدهشون عندما يجدون أن الكتاب المقدس هو كتابان، أولهما: العهد القديم المعروف بتوراة موسى، والذى يضم تسعة وثلاثين كتابًا، وثانيهما العهد الجديد المعروف بإنجيل عيسى، لكنهم سَيُدَهشُون أكثر إذا عرفوا أن العهد الجديد يضم أربعة أناجيل والأناجيل الأربعة سبعة وعشرون كتابًا، ولذا فإنه من الأهمية بمكان أن نقترب من المسلمين بمشاركتهم الدهشة، وإنكار أن لدينا عدة كتب، لأنها جميعًا عبارة عن بشارات سارة، وليست هى الكتاب الذى نزل على المسيح من السماء.

٢٥- لسوء الحظ أن أناجيلنا تنتسب إلى متّى، ولُوقَا، ومُرقص، ويُوحنّا، وهى إساءة لا يمكن حذفها، فاحذر أن تنسبها إلى الله، لأن كلام الله عند المسلمين هو شريعة وقانون.

٢٦- حاول كثيرًا أن تتجنب فى مناقشتك اسم بولس الرسول، فإمّا أنهم لم يسمعوا عنه من قبل، وهذا يثير حفظيتهم لذكر رسول لم يسمعوا عنه من قبل، أو أنهم قد سمعوا عنه؛ حيث يعتبرونه أسوأ رجل فى تاريخ النصرانية لأنه اخترع مفاهيم لم يجىء بها المسيح، وهذا فى الحقيقة ما قرأه أئمة المسلمين فى كتب كبار لإنتقاد الغربيين ذاتهم لتاريخ عقيدة النصرانية.

٢٧- حاذر أن تقول أن المسيح ابن الرب، فأنت بذلك تفعل شيئًا مُزعجًا يعتبرك به المسلمون « مشركًا بالله » وهذا يعنى فى اللغة العربية أسوأ الخطايا التى يمكن أن يرتكبها بشر تجاه الله.

٢٨- تَبعًا لبولس الرسول فإن المسلمين جميعًا يمارسون الوثنية التى هى مكروهة عندهم لتصديقهم القرآن وأتباعهم لنبيهم محمد باعتباره رمزًا لخطيئة البشر التى ترفض كفّارة ربنا يسوع وفداءه، فاحذر أن تصفهم حسب وصف بولس (الضالين)، ولا تقول على قناعتهم بدخول الجنة إذا نفذوا شريعة قرآنهم وإنكارهم لفداء المخلص.

٢٩- المسلمون يصدقون أن الله لديه سلطة كى يُسامح أى إنسان على أخطائه، وأنهم سوف يكونون على الصواب، إذا ما نفّذوا قانونه وشريعته، بينما نحن نعتقد باننا نكون على الصواب، إذا ما كنا نؤمن إيمانًا كاملاً بيسوع المسيح ربنا وسيدنا، وليس بفعل ما يأمر به القانون، فهل يعنى هذا أننا نرفض القانون، أو نبتعد عنه، إننا

نهتم مثل المسلمين بالقانون وبالشريعة، ولكن إيماننا بالمسيح الرب المنقذ المخلص الفادى يكفينا لأن نحقق كل الصواب الذى يريده الرب، وكل خطايانا قد بذل روحه فداء لها؛ لأن ربنا يجعل المُذنب الذى يؤمن به بريئًا من كل ذنوبه!!!

«وفيه يتضح أنهم يؤمنون بالله إلا أن إيمانهم بيسوع أعظم».

٣٠- إن إبراهيم «عليه السلام» لم يحيا حياة مستقيمة، وقد فعل أخطاء كثيرة، لكنه عند المسلمين «أبو المؤمنين» ويُعتبر مثالاً لهم، وهذا ما يجب أن نوضحه للمسلمين بشجاعة، دون أن نَنقُد القرآن الذى جعل إبراهيم أبًا للأنبياء.

٣١- يتباهى المسلمون بقدسية قرآنهم التى ترقى إليها أناجيل النصارى، فلا تحاول أن تقلل من أهمية هذه القداسة، ولكن يكفى أن تطرح عليهم سؤالاً... هل يوجد مسلم واحد على وجه الأرض يؤكد له القرآن أن زيارته لمكة لأداء فريضة الحج مقبولة عند الله أم لا.؟ بالطبع ستكون الإجابة بالنفى؛ لأن القرآن ينص على أن الجزاء عند الله يحدده بعد الموت، أما عندنا، فيكفى الإيمان بيسوع لنَضْمن أن أعمالنا كلها مقبولة. فأىّ الطريقين نختار؟

٣٢- لا يستطيع مسلم أن يقول أنْ أعرف الله، إنما دائمًا يقول (أعرف من الله) (أعلم عن الله) (أتحرك بعون الله) - فهناك حرف جر يفصل بين المسلم وربه، لأنه يظل يبحث طوال حياته عن معية الله. لكننا النصارى بإيمان الرب نَعرفُه بدون حرف جر.

٣٣- من الصواب أن تقدم وعظك بما هو مشترك بين الإسلام والنصرانيّة، فكلا الديانتين سماويتين، ونَحْنُ مثل المسلمين نحْترم قوانين السماء (يقصدون الشرائع) بإعتبارها بيانًا لإرادته، ونعتقد فى سيادته على المخلوقات وأنه قادر على كل شىء.

٣٤- إن كثيرًا مما يرفضه المسلمون من عقيدتنا هو رفض آلى من العملية العقلية الإسلامية، فعليك أن تتسلح بالصبر خاصة أن ثقافتنا لا تساعدنا على منازلتهم، ووجودنا فى بلاد المسلمين لا يحقق لنا نتائج سريعة، ولا تصدمُك كثيرًا الكلمات الدينية التى سوف تصل إلى أذنيك فى كل مكان تذهب إليه، لأنه لا تعنى كثيرًا عندهم وهم يرددونها.

٣٥- سؤال يسأله المسلمون دائمًا: لماذا كان اختيار يسوع ليهوذا الخائن أن يكون أحد تلامذته الحواريين؟ المسلم يقول إن المسيح كان رسولاً وعلى ذلك فهو يؤمن بضرورة أن يكون لديه موهبة معرفة الغيب، ولذلك فالمسلم يصر على هذا السؤال، والحقيقة أن السؤال أكبر من ذلك بكثير؛ فهو ليس فقط - لماذا يهوذا، ولكن لماذا خلق الرب العالم لو أنه يعلم أن الإنسان سوف يخطئ؟

إن الإجابة جزءٍ من مشكلة أكبر تقع تحت عنوان مشكلة الشر، ويجب أن لا نكون خجولين أبداً عندما نقول إن هناك أشياء معيّنة ليس لدينا الإجابة عنها، ولسنا وكلاء للدفاع عن ربنا.

٣٦- إذا وجه المسلمون إلى المُبشّر (المُنصّر) سؤالاً حول صلب المسيح، واعتبار النصارى أن ذلك كان فداء منه، فلماذا لم يذهب هو للصَّلب بداية ويعفى نفسه من الإهانة واللطم والأذى وحمل الصليب والركل بالأقدام والسب؟ ولماذا كان يحاول الهروب أصلاً من القبض عليه وتقديمه إلى الصليب؟

وقد قدم التقرير فى نصائحه (اقتراحات نهائية) أنه عند الإجابة على هذا السؤال، ففى البداية يجب أن نقول إن المسيح كان بشراً وكان إلهًا، ويجب أن لا نقلل من طبيعته البشرية حينذاك، وبطرس الرسول نفسه قد وجد صعوبة فى تقبُّل عملية الصلب، وأنكر ألوهية ربنا المسيح، مع أنه كان أكبر حوارييه، وأقربهم إليه - ولذا يجب أن نكون متعاطفين مع المسلمين فى هذا السؤال، ولا بد أن نصبر عليهم حتى يتفهموا قول المسيح عندما اقترب موته (ليس ما أريد ولكن ما تريد) قالها ثلاث مرات ليظهر لنا أنه بقبول الصلب قَبِل رسالة الرب الذى هو الأب كى يصبح ممثلنا وفادينا.

وكانت تلك هى النصائح الست وثلاثين التى أوصى بها مركز التنصير الإنجيلى الإرساليات التبشرية العاملة فى تنصير الجزائريين، وقد انتشرت على أرض الجزائر فى كل شوارعها، وحاراتها، وأزقتها، خاصة بعد الهزيمة النفسية القاسية التى باغتت الصحوة الإسلامية بعد هزيمة التحالف الإسلامى فى الإنتخابات البرلمانية العامة، منذ سنوات قليلة التى كادت أن تقفز بالمسلمين إلى رأس الحكم لولا عمليات التزوير المفضوحة التى مارستها الحكومات العلمانية فى الجزائر استجابة للضغوط الخارجية الهائلة.

وتجدر الإشارة إلى الدور الخطير الذى اضطلع به الرئيس الجزائرى السابق «أحمد بن بيلا» فى مناهضة المسلمين وقتلهم وتشريدهم، وقد وفد إلى مصر فى صيف عام ٢٠٠٣م بصفته رئيسًا لأحد الأندية الماسونية فى الشرق (نادى روتارى الجزائر) وهو نادٍ ماسونى صهيونى للنخاع. ليتحدث بن بيلا فى مؤتمر عقد فى القاهرة عن السلام وضرورته كخيار استراتيجى للعالم العربى وقت أن كانت الأرض تحترق فى كل من فلسطين، والعراق، وأفغانستان، وذلك بعد أن قتل ابن بيلا الديمقراطية، والأصولية الإسلامية لينضموا هؤلاء إلى قائمة المليون شهيد، وهو إلى قائمة الكفرة الفجرة.

عمومًا: فقد دخل المسلمون الجزائريون فى دائرة العنف التى فرضها النظام الحاكم هناك منذ أن أخطأوا المسار منذ حين، وتقاتل الأصوليون المسلمون الرافضون للوجود الصليبى، ا لصامدون أمام الغارة التنصيرية الأوروبية – الأمريكية المشتركة مع الحكومة الجزائرية، ووقع المسلمون هناك بين شقّى رحا بين حكومة باتت عاجزة عن التصدى لتلك الغارة، حتى لا تخضع للعقوبات الخارجية تحت مزاعم الإضطهاد الدينى – ومحاربة الأديان فلجأت إلى إخماد الثورة الإسلامية المدافعة عن دين الله، وبين المنصرين والمتنصرين الذين بلغوا الآلاف، وتدعمهم جِهَات خارجية عديدة بالأموال والأسلحة والأفراد.

وهذا هو المناخ الجيد لتكثيف عمل تلك الإرساليات، إلا أنها مع ذلك لا زالت حتى الآن تعانى من خيبة الأمل وقلة الحيلة، التى تعبر عن فساد الفهم، وخلل العقيدة، وشدة المؤامرة، على الرغم من بعض المكاسب التى حققتها تلك البعثات التبشرية على أرض الجزائر الشقيقة.

وهذه صرخة أصرخها من هذا المقام وأنا مكلّمُ الفؤاد مكتويًا بنار الغيظ ممن ينعتون الأصوليين هناك بالإرهابيين – وهم يمارسون جهاداً مشروعًا، أطلقوا عليه كما قال الأعداء إرهابًا إسلاميًا، أو بالمعنى الأدق «التطرف».

وإلى الله تعالى ألجأ تضرعًا أن تستعيد الجزائر الجريحة عافِيتها، وتُضْمِدُ بزاد الشريعة جراحها.

* * *

(جـ) تنصير الجزيرة العربية

اتجه النشاط التنصيرى نحو شبه الجزيرة العربية بجهد حثيث استطاع خلاله أن يصل بأذرعه الطويلة من أقصى الجنوب الغربى عند اليمن إلى أقصى الشمال الشرقى فى بلاد العراق، ثم امتد منها ناحية الجنوب صوب الخليج العربى فى كل من [الكويت – ودبى، والبحرين]: وقد أخذ يرمى شباكه التنصيرية للإيقاع بالضحايا من أهل هذه البلاد، ثم الزحف نحو السعودية.

وقد تركزت مجهوداتهم عند مدخل البحر الأحمر فى المنطقة المواجهة لقلعتهم المسيحية فى إفريقيا (إثيوبيا)، وكان اليمن هى المحطة الأولى فى هذه المنطقة. حيث قصدتها الارساليات التبشيرية مبكراً لمواتاة الظروف للقيام بمهام التبشير والتنصير هناك ساعدهم على ذلك أنه بالفعل يوجد على أرض اليمن كما هو الحال فى جنوب العراق – فقراء ومرضى يستبدلون الإسلام بالخبز والدواء، فى ظل حكومات أدمنت الصمت.

وفى أعقاب ١١/٩/٢٠٠٠م فى الولايات المتحدة – جاء مقتل ثلاثة من الأطباء الأمريكيين فى مدينة «جَبَلَة» اليمنيّة على يد من وصفته وسائل الإعلام بـ(متشدد إسلامى» ليضيف بعداً جديداً فى حلقات الصراع المحتدمة ما بين الولايات المتحدة، والحركات الجهادية الإسلامية المصنفة امريكيًا فى خانة الإرهاب، حيث اتهم منفّذ العملية الأطباء الأمريكيين بالقيام بالتنصير وسط صفوف الفقراء اليمنيين فى جبلة، مؤكداً على أن العديد من هؤلاء ارتدوا عن الإسلام وتنصروا بفعل جهود المبشرين فى «جبلة» وغيرها من المحافظات اليمنية الأخرى، وهو ما يشير إلى أن الحركات التبشيرية تخلت مؤخراً عن طابع السرّيّة الذى اتسمت به نشاطاتها فى الجزيرة العربية حتى أن أحد المواقع التنصيرية على شبكة الإنترنت يعلن بصراحة أن هدفه هو كنيسة فى مكة، وقُدّاس فى المدينة.

وهذا هو ما أكد عليه المنصّر روبرت ماكس حين قال (لن تتوقف جهودنا وسعينا فى تنصير المسلمين حتى يرتفع الصليب فى سماء مكة ويقام قداس الأحد فى المدينة)[١]، وأكد مُنَصِّر آخر على إحتدام صراع الحضارات وتضاد أتباع الديانات حين أكد على أنهم بدأوا فى قطف ثمار ما زرعوا فى إفريقيا، وأن أرض الحجاز هى الهدف التالى المباشر فى مخططهم الرامى إلى تنصير المسلمين. بقوله (لقد هان الأمر فى إفريقيا فقد انتشر فيها الزنا وشرب الخمور والآن يجب التركيز على الجزيرة العربية[٢].

ويشير المراقبون إلى أن مدينة «عدن» فى جنوب اليمن شهدت فى الأول من يناير عدة تفجيرات استهدفت أحدها كنيسة المسيح فى حى «التواهى»، والتى تعد أقدم الكنائس فى اليمن، آنذاك رأت بعض المتابعات الإعلامية فى هذا التفجير رسالة إلى بعض المبشرين الأمريكيين الذين توسع نشاطهم من خلال الخدمات الإجتماعية والصحية التى تقدمُها الكنيسة لفقراء عدن، وما تردد عن ارتداد بعضهم عن الإسلام وتحولهم إلى المسيحية.

ولمدينة جبلة التابعة لمحافظة «إب» جنوب العاصمة تاريخ طويل مع نشاط المنظمات التبشيرية، والتى تتمثل فى البعثة المعمدانية الجنوبية، وهى هيئة تنصيرية أمريكية تدير مشروعات صحية وخدمية فى (١٨٤) دولة، وتشير بعض التقارير إلى أن أفراد البعثة فى جبلة استطاعوا خلال سنوات عملهم التى بدأت عام ١٩٦٧ تنصير

---

(١) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان ص٨.

(٢) المصدر ذاته.

(١٢٠) يمنى من الأيتام، والفقراء، والمرضى المترددين على المستشفى، وفى عام ١٩٩٢ شهدت جبلة حادثة هزت المجتمع اليمنى بأكمله حيث قام مواطنان يمنيان بتمزيق القرآن الكريم، ورميه فى حمامات « مسجد الأشرفية »، وبعد التحقيق معهما اعترفا أمام المحاكم بأنهما ارتدا عن الإسلام ودخلوا فى المسيحية، من خلال شخص ثالث، وعند استدعاء الأخير أقر باعتناق المسيحية نتيجة قراءته واضطلاعه على الكتاب المقدس – الإنجيل.

وفى محاولة للتصدى لهذه الأنشطة التنصيرية أصدر مركز الدراسات الشرعية فى – إب – عدة دراسات ونشرات للتحذير من نشاط البعثة، كما أن العاملين بالمستشفى تلقوا تهديدات عدة لوقف نشاطهم التنصيرى، وهو ما رصده تقرير الخارجية الأمريكية الخاص بحقوق الإنسان الصادر فى فبراير ٢٠٠١م.

ومن العجيب أن يعلن الرئيس اليمنى على عبدالله صالح عن وقوف صنعاء مع واشنطن فى خندق واحد ضد الإرهاب واستئصال شأفته.

لقد رصد تقرير الخارجية الأمريكية الخاص بحقوق الإنسان تهديد الجماعات الإسلامية للمنصرين، واعتبرهم متشددين إسلاميين يُرهبون الناس ويُجبرونهم على الإعتقاد بعقيدة بعينها ومن ثم فإنهم يمارسون عمليات الإضطهاد الدينى الجماعى، وهو سلوك يتنافى تمامًا مع ما يَدْعُون إليه ويجارون به من شعاراتهم البراقة الزائفة (حرية أو هى ـ حوار الأديان) التى لا تهدف إلا لتنصير المسلمين دون غيرهم من بنى البشر، وهو أمر يستوجب بالضرورة تدخل الأنظمة والحكومات المحلية فى الدول الإسلامية على قمع وقهر من أسموهم بالمتشددين الإسلاميين، وهو التعبير المهذب الذى لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما أسموهم بالجماعات الإرهابية، وسرعان ما ارتبط الإرهاب بالإسلام فثارت ضجة إعلامية هائلة عما قيل عنه « الإرهاب الإسلامى » وهو الأداة التى استخدمها غلاة اليمين المسيحى المتشدد فى الولايات المتحدة لإحراق كابول واحتلالها ونسف بغداد واحتلالها، وتقسيم السودان وحصار ليبيا، كما يؤكد على هذا رفع العصا الأمريكية الغليظة لمكافحة الخَطر الإسلامى فى وجه كل من سوريا، وإيران، والسعودية والبقية تأتى تباعًا!!!

والأشد عجبًا هو ما نراه من سلوك بعض الحكومات العربية فى السير على الوتيرة الإعلامية الغربية التى لا تخدم سوى أعداء الأمة والمتربصين بها – عن طريق مناهضة الإسلاميين وحظر أنشطتهم والزج بهم فى زنزانات الحبس لتهم لا يعلمون عنها والجرائم لم يسمعوا بها ولم يكن ذلك أبدًا خطا سياسيًا صحيحًا لأنه يقوض

فرص تحسين العلاقة بين الحاكم والمحكوم وهو كذلك - يخدم المصالح الأجنبية فقط ويُصعّد موجات العداء فى الداخل الإسلامى المهلهل عمومًا، وخاصة بعد أن نفّذت الولايات المتحدة عملية اغتيال الحارثى ورفاقه على أرض اليمن بعد أن نسبت إليهم تهمة تفْجير المدمرة الأمريكية كول أثناء زيارتها للموانى اليمنية.

لذلك فقد بادرت الحكومة اليمنية وبسرعة لتأييد الإدارة الأمريكية فى الحرب التى أعلنتها على ما قالت بأنه الإرهاب، وقد بدا ذلك واضحًا عندما صرح المتحدث باسم البيت الأبيض آرى فلايشر فى أعقاب زيارة الرئيس اليمنى لواشنطن فى نوفمبر ٢٠٠١م عن رغبة «على عبدالله صالح» الشديدة فى أن يكون شريكًا قويًا وحميمًا للولايات المتحدة فى حربها على الإرهاب.

وقد حصل اليمن كمكافأة على ذلك على مبلغ (١٣٠) مليون دولار مساعدات مالية تصرف حسب التعليمات الأمريكية على تنمية المناطق اليمنية الفقيرة، وعلى محاربة الإرهاب[١] - أى إشعال فتيل الحرب الأهلية بين الجيش اليمنى المدافع عن مقعد الرئيس بحكم الدستور، وبين القبائل والعشائر التى ينتمى إليها أعضاء تنظيم القاعدة وما يسمونهم بالمتشددين الإسلاميين وفى طليعتهم الحارثى ورفاقه.

كما تشير التقارير إلى أن أول عمل تبشيرى منظم فى اليمن بدأ عند خمسينات القرن الماضى، وتركز أساسًا فى عدن ومحافظات اليمن الجنوبى «فى ذلك الوقت» واستمر حتى عام ١٩٧٢ .م، وقد أمتد النشاط التبشيرى إلى شمال اليمن عام (٦٩ : ١٩٨١) ومارسته منظمة تنصيرية اسمها فريق البحر الأحمر الدولى - كما أطلق على هذه المنظمة اسم «الخيَّامُون» حيث كان أفرادها يقدمون الخدمات الصحية، والإجتماعية للمدن والقرى التى ينزلون بها، وكانت المؤسسة ترفع شعار (الإسلام يجب أن يسمعنا) مشيرة إلى أن هدفها نشر إنجيل الرب عيسى بين المسلمين، وذلك ضمن نطاق عملها الذى يضم كلا من (مالى، وجيبوتى، وباكستان، واليمن، وتنزانيا).

---

(١) الأحداث كاملة فى وحيد القرن ورياح التغيير - للكاتب.

ويشير المراقبون إلى أن واجهات التنصير فى اليمن تتنوع ما بين دينية واجتماعية وصحية وتعليمية، وفيما يتعلق بالكنائس المسيحية فى اليمن، فإن أشهرها الكنيسة الكاثوليكية بمنطقة «التواهى» وهى أهم موقع مسيحى فى اليمن وربما فى شبه الجزيرة العربية باكملها، وتتبع المجمّع الكنسى الكاثوليكى فى قبرص ولكنها تدار حاليًا من جانب الكنيسة الإنجليكانيّة فى دُبىّ بالإمارات، وقد بذلت السفارة الأمريكية فى اليمن جهودًا حثيثة لإعادة افتتاح تلك الكنيسة عام ١٩٩٥م ويوجد بالكنيسة مركز طبى يُقدم خدمات لأبناء القرى المحيطة.

وقد نجحت بعض جماعات التنصير الإنجيلية فى إقامة كنيسة فى العاصمة صنعاء داخل إحدى المجمعات السكنية، وكانت هناك كنيسة معمدانية فى مدينة «كرينز» بعدن تدار بواسطة الكنيسة الإنجليكانية فى لندن لكنها أُغلقت بسبب إهمال أعضاء البعثة، وتقصيرهم، كما توجد كنيسة ملحقة بالمستشفى المعمدانية فى جبلة.

وفيما يتعلق بالواجهة الصحية هناك المركز السويدى فى مدينة «تعز»، وجمعية «من طفل إلى آخر» والتى يتركز نشاطها بين الأطفال المصابين بالعمى والخرس، وتدير المنظمات التبشيرية مركزًا صحيًا ودارًا للعجزة فى صنعاء، ومن جانبها تنشط منظمة «مارى ستوبس» فى مجال رعاية الأمومة والطفولة، وتدّعم مشاريع تنظيم النسل.

وتلك هى المداخل الرئيسية لجماعات التبشير التى تجول وتصول فى العالم الإسلامى كله وعلى إطلاقه ومن دون استثناء وتتخذ من خدماتها سابقة الذكر وسيلة جيدة للتأثير على المسلمين الذين طحنهم الفقر والجوع والمرض فى هذا الزمان الذى ضاقت فيه الأرزاق وحدثت فيه فجوة هائلة بين الدخل والإنفاق، وهى المشكلة التى باتت تؤرق كل البيوت وتثقل كواهل كل الشعوب.

وفى صنعاء تملك جمعية «رسالات المحبة» والتى كانت ترتبط مباشرة بالمبشرة الشهيرة الأم تريزا - مركزًا للمصابين بالجذام والأمراض العقلية تضم (٤٠٠) مريضًا، كما تشرف الجمعية على دارين للعجزة فى صنعاء.

وتشكل مخيمات اللاجئين الصوماليين فى محافظة «أبين» بيئة خصبة لنشاطات التنصير، وتحدثت تقارير صحفية عن العديد من حالات التنصير فى صفوف هؤلاء اللاجئين، ومن الجدير بالذكر أن الحديث عن المؤسسات التنصيرية ليس

له علاقة باليمنيين المسيحيين الذين لا يزيدون عن عدة مئات وهم من جذور هندية، وهم يتمتعون بحرية تامة فى ممارسة شعائرهم وطقوسهم الدينيّة بحكم الدستور والقانون، ولا يمارس المسيحيون اليمنيون أى نشاط تبشيرى، فهذا ممنوع عليهم بحكم القانون، حيث تنص المادة الأولى من الدستور اليمنى على أن الجمهورية اليمنية دولة عربية إسلامية مستقلة ذات سيادة، وأن اللغة العربية لغتها الرسمية، كما تشير المادة الثانية إلى أن الإسلام دين الدولة، فيما تنص المادة الثالثة على أن الشريعة الإسلامية هى مصدر جميع التشريعات.

وامتد النشاط التبشيرى إلى المناطق التى يمثل فيها الشيعة أغلبية سكانية فى المنطقة الشرقية من المملكة السعودية وجزء كبير من منطقة مجلس التعاون الخليجى بالإضافة إلى جنوب العراق بحيث تظهر القلعة الإسلامية (مكة المكرمة) وكأنها تقع الآن بين طرفى كماشة تنصيرية باتت مهيأة تمامًا للإنقباض على المناطق البينية – وهم يستعدون لذلك أيَّما استعداد.

وسوف نورد كثيراً من هذه القضايا الشائكة ضمن كتابنا القادم / أغوار العالم الإسلامى – أعاننا الله على إخراجه – آمين.

* * *

(د) الإعتراف العلنى

تزعم غلاة اليمين المسيحى حملة شريرة شرسة تستهدف التطاول على الإسلامى وعلى النبى (محمد صلى الله عليه وسلم) يقودُ تلك الحملة ثلاثة من المتطرفين المسيحيين هم (جيرى فولويل – فرانكلين جراهام – جيرى فاينز) يدعمهم فيها اللوبى الصهيونى من خلال ترويجه عبر وسائل الإعلام الأمريكية التى تبذل جُهداً مُضنياً فى سبيل ذيوع تلك المزاعم الآثمة لأولئك الغلاة المتطرفين – فقد تفوه القسيس (جيرى فاينز) بالإثم حين افترى على الرسول ﷺ، واتهمه بأنه (شاذ يميل للأطفال ويتملكه الشيطان)..... وفى حديثه فى المؤتمر الشهير لكنيسة المعمدانية الجنوبية فى (سانت لويس) فى يونيو ٢٠٠٢ مضى يقول «إن الله الذى يؤمن به المسلمون ليس الرب الذى يؤمن به المسيحيون، لأن الرب الذى يؤمن به المسيحيون لا

يقوم بتحويلك إلى إرهابى يحاول تفجير الناس، وأخذ أرواح مؤلفة من البشر».

أما القسيس فرانكلين جراهام فقد وصم الإسلام على أنه دين الشر، وأن الإرهاب يمثل التيار العام فى الإسلام، وأصدر جراهام كتابًا مسيئًا للإسلام يحمل عنوان (الإسم) – قال فيه ضد الإسلام والرسول، وتطاول – فقال: أن الإسلام تم تأسيسه بواسطة مجرد فرد بشرى مقاتل يسمى (محمد) وفى تعاليمه ترى تكتيك نشر الإسلام من خلال التوسع العسكرى، ومن خلال العنف إذا كان ضروريًا، ومن الواضح أن هدف الإسلام النهائى هو السيطرة على العالم، وقال – إن الإسلام على عكس المسيحية يحتوى ضمن تعاليمه الأساسية على عدم تسامح عميق مع من يتبعون ديانات أخرى، وفى طعن صريح فى القرآن قال «يحتوى القرآن على قصص أخذت وحرّفت عن العهدين القديم والجديد»، وأضاف أن الإختلاف (رقم ١) بين الإسلام والمسيحية أنه «إله الإسلام ليس إله الديانة المسيحية»، وأن الإسلام يعتمد على القوة والتخويف، وغزا بلادًا كاملة لإدخال أهلها فى الإسلام.

هذا وقد دعا اثنان من محررى مجلة (ناشينوال ريفيو) على موقع المجلة فى شبكة الإنترنت فى مارس ٢٠٠٢م إلى ضرب مكة بالقنبلة النووية[١].

تأتى تلك التصريحات وهذه الإعترافات العلنية فى الوقت الذى يسعى فيه الفاتيكان إلى إبرام اتفاقيات مع حكومات الدول الإسلامية، وقد تمكن بالفعل من توقيع اتفاقية غير مسبوقة مع الحكومة التركية ترمى إلى حماية حرية الأديان[٢] والمعتقدات فى إطار ما يسمى تطوير الحوار بين المسيحيين والمسلمين لنشر الثقافة الجديدة التى تمهد الطريق وتفتح الأبواب أمام دعاويهم الزائفة لما يسمى بحرية الأديان والمعتقدات ومحاربة التعصب لتمهيد الطرقات أمام إرساليات التبشير الوافدة، تم توقيع الإتفاق فى الجمعة ٢٦ / ٤ / ٢٠٠٢م، ولم يتم الإعلان عنه إلا فى يوم الاثنين ٢٩ من الشهر ذاته، وقّع الإتفاق بالأحرف الأولى (الكاردينال فرانسيس أرينزى) رئيس المجلس البابوى للحوار بين الأديان، و«محمد يلماظ» من «مكتب الشئون الدينية فى تركيا».

(١) شبكة المعلومات الدولية (إنترنت) مواقع متعددة.

(٢) أى – ضمان أمن وسلامة إرساليات التبشير العاملة فى الدول الإسلامية.. بحسب رؤيتهم.

يدخل هذا الإتفاق فى سياق المساعى الجارية الحثيثة من أجل مدّ ما يُسَمّى (جسور الحوار) بين العالم الإسلامى والمسيحى، وهذه هى المرة الأولى التى يتم فيها توقيع اتفاق من هذا القبيل بين الفاتيكان وحكومة بلد غالبية سكانه من المسلمين كتركيا

صعوبات

كان الفاتيكان قد وقع فى وقت سابق اتفاقًا مع الجامع الأزهر الشريف فى مصر، غير أن مستشارى بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثانى يشتكون من صعوبة إقامة ارتباطات جديدة مع العالم الإسلامى بسبب غياب سلطة دينية مركزية مماثلة للبابا والنظام الدينى التَّراتُبى كالكرادلة والأساقفة.

وقال أحد مسؤلى الفاتيكان: إنه لهذا السبب لا مانع من إبرام اتفاقيات مع السلطة الحكومية فى البلاد الإسلامية كما حصل مع تركيا[1].

عمومًا فإن الفاتيكان استطاع أن يوقع اتفاقًا مع حكومة علمانية أقامها اليهود الذين اغتالوا الخلافة الإسلامية، والتى اغترت بوعود واهية للإنضمام إلى الإتحاد الأوروبى – وهو أمر يبدو بعيد المنال – خاصة أن الحكومات التركية نَفّذت معظم الشروط التى وضعها الغرب لقبول عضويتها – فحاربت الإسلام – وعطلت أحكام الشريعة، وفرضت علمانية الحكم والنظام، وسمحت بحرية التنصير أو التهويد أو الزندقة (حرية الأديان والمعتقدات) التى فرضها عليها الغرب، ويحاولون تعميمها منذ حين وبشتى الطرق وبكافة الوسائل على معظم بلدان العالم الإسلامى. وهم نهاية يضعون أمامها العراقيل والمتاريس حتى لا تحظى بعضوية الإتحاد الأوروبى « المسيحى »، تخوفًا من أن ينهض الإسلاميون بداخلها من جديد. لأن الوجود الإسلامى التركى الجماهيرى هو وجود مكروه وغير مرغوب فى وجوده من حيث الأصل، ولو كان غير ذلك لسمحت أوروبا لدولة البوسنة والهرسك أن تكون كما كان يرغب أبناؤها – ثم إنها هى أوروبا المستمرة فى حملاتها الصليبية على الشرق منذ زمن طويل، حتى وإن تطورت وسائل تلك الحملات وإن اختلفت أدواتها فإن الهدف واحد لا يتغير بتغير الظروف أو الأوقات.

فها هى إرساليات التبشير فى إفريقيا، وقد عبرت مبكرًا إلى آسيا، واستطاعت هناك أن تستقطع جزيرة « تيمور الشرقية » وأن تنتزعها من أحضان الأم (أندونيسيا)

---

(١) بى بى سى نيوز – إنترنت فى ٣٠/٤/٢٠٠٢.

وقامت هناك على أرض هذه الجزيرة دولة صليبية فى العام قبل الماضى، وقد سارع العالم الغربى كله بالإعتراف بتلك الجزيرة دولة ذات سيادة تَتمتّع بحدود معترف بها، وما تزال بعثات التبشير فى أندونيسيا تعمل من غير كلل فى سبيل تنصير المسلمين على أراضى أكبر دولة إسلامية من حيث المساحة والسكان وقد جاءت تفجيرات بالى الشهيرة فى عام ٢٠٠٢م خير شاهد على صمود الجماعات الإسلامية الأصولية فى وجه الزحف التنصيرى الشرس على المسلمين فى بلادهم.

وقد ألقت الحكومة المركزية فى العاصمة جاكرتا القبض على الشيخ (أبو بكر بشير) القائد المناضل فى أندونيسيا. وهو رهن المحاكمة منذ وقت مضى لمحاكمته عما نُسب إليه من تهم الإرهاب «إياه».

إن صراع الحضارات تطور فى عصرنا الحاضر إلى حد السير على درب التنصير بعزم وجدية واجتهاد. وهم يستغلون تمامًا الأزمات الإقتصادية الطاحنة للشعوب، والإضطرابات السياسية التى يئن بها العالم الإسلامى، والتى تولدت عنها فجوات هائلة بين الحكام والمحكومين، وما نتج عن هذه من بطالة، وفقر وجهل ومرض وتخلف، وكلها أعراض تؤكد على حدوث إصابة بالغة فى الجسد الإسلامى كله، وهى حمى الإعراض عن دين الله (إلا من رحم ربى) ولجوء قادة العالم الإسلامى من أصحاب الحضارة والفكر والإبداع والإدارة إلى البحث عن حلول لمشاكلهم المتفاقمة تارة فى الشيوعية وأخرى فى الرأسمالية، وتارة فى العلمانية وأخيرة فى النظام العالمى الجديد – أى الذوبان فى (نظام اللانظام)، وجميعها محاولات باءت بالفشل فى جميع مراحلها، ولم يحصد المسلمون من جرائها غير المزيد من السوء والمزيد من المشكلات والمزيد من الفقر.

* * *

خامسًا: العداوة عالمية وجهرية

● **تقـــديم:**

ما يجرى الآن على أرض الواقع هو امتداد طبيعى لحركة التاريخ التصادمى المستمر عبر عشرات القرون، كما عرضنا لذلك فى معرض الكتاب وصدره، وهو ما يكشف لنا عن أن تلك الصدامات وهذه الصراعات ما هى غير مؤشر قوى يؤكد على أن حقيقة العداوة التاريخية ليست إقليمية أو وقتية، إنما يبرهن بقوة على عالميتها وتعدد أطرافها، وتاريخها الشمولى الطويل الذى تنطق الشواهد على أنه زاخر بالهواجس والكوابيس التى أقضت مضاجع العالم الصليبى – الصهيونى الذى سقط بسقوط بيزنطة، ودخول الفتح الإسلامى إلى القسطنطينية، وتقدمه غربًا حتى

النمسا- وقد تأكد سقوط هذا العالم بدخول « طارق بن زياد » الأندلس، وبتوغل قوات الفتح الإسلامى بعده فى أواسط أوروبا، ثم دخلت هذه القوات إلى الحرم الغربى ليصل إلى الأراضى الفرنسية.

إن العداوة للإسلام ديناً وأتباعاً هى عداوة عالمية وشاملة، كَشّرت عن أنيابها، ونوعت من أدواتها، وقد تباينت فى نتائجها، وذلك لأنها عبرت الجغرافيا، وسبقت التاريخ، فهى بالتالى لا تعرف حدوداً سياسية أو مكانية، أو مواقيت زمنية أو ضوابط بيئية.

فورثة الإمبراطورية البيزنطية لهم مقر فى النمسا، صاحبة أكبر موروث تاريخى فى إبادة مسلمى الشيشان بالإشتراك مع المجر، أما هؤلاء الورثة الذين يحاولون النهوض بها بهمة ونشاط هم (روسيا – صربيا – بلغاريا – الجبل الأسود – اليونان).

وعلى الجانب الغربى من أوروبا يوجد ورثة الإمبراطورية الرومانية القديمة (أسبانيا – فرنسا – إيطاليا – أمريكا – الفاتيكان) وهم النموذج الكاثوليكى، بالإضافة إلى طرف ثالث لا يغيب، ولم يشأ أن يغيب عن إحدى حلقات المسلسل التصادمى منذ قدموا الشاة المسمومة للرسول ﷺ، وحتى اشتراكهم كمرتزقة فى غزو العراق، وشروعهم فى تطبيق النموذج الفلسطينى على أرضه، هذا غير سعيهم الدؤوب نحو إقامة علاقات دبلوماسية حتى كانت مع مصر والأردن والمغرب وموريتانيا، بينما أصبحت لهم مكاتب سياسية فى البحرين وسلطنة عمان، أما قطر فإنها سبقت الجميع فى السعى نحو تطبيع علاقاتها مع الإسرائيليين بشكل عام.

وعلى الرغم من مثلث العداء الدموى التاريخى الكائن بين اليهود والرومان من جانب، والبيزنطيين واليهود من جانب، فهناك العداء الكاثوليكى والأرثوذكسى من جهة-أخرى فى مواجهة اليهود.

إلا أن هذا المثلث المتساوى الأضلاع العدائية تمكن من توحيد اهتماماته لتلبية مطالبهم المسلحة وإشباع نزواتهم الجامحة فى تطهير الساحة من عدوهم المشترك: « الإسلام »، فذابت لأجل ذلك الخلافات، وتناسقت الأدوات، وأضحى الثلاثة أضلاع يشكلون ضلعاً واحداً مستقيماً ينتهى برأس مدببة تندفع بسرعة نحو الجسد الإسلامى الهزيل، الذى لا يقيم صلبه غَيْرَ المحاولات الجادة لإعادة بناء هيكله ذاته، إنطلاقاً من اللبنة الأولى للمجتمع (الأسرة)، وإنتهاء بالقيادات العصرية المثقفة الواعية المدركة للأحداث، المتعاملة مع التداعيات، لأن كثيراً من قادة العالم الإسلامى المتحلل قد اعتزلوا السياسة الدولية بشكل عام، واشتغلوا بقهر شعوبهم، والتسلط عليهم،

وتضليلهم، وصفَحات التاريخ خير شاهد على ذلك – كما تحتاج هذه المحاولات إلى انتفاضة حقيقية للتمرد على الواقع المزرى، فالدول الإسلامية بعضها مُحتلٍ إحتلالها عسكريًا سافرًا، وبعض قهرته الديون، وأخريات تتسول وقد تخلفت كثيرًا، وغيرهم دول غابت بلا مقدرة أو إرادة، أما الطامة الكبرى فهى أن الكل يعادى بعضه بعضًا، ويتقاتلون فيما بينهم قِتَالاً شرسًا مريرًا إنابة عن أعدائهم.

كأس البدع الممزوجة

إن شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وما أقبح تلك البدعة المسماة بالأصولية أى (الإرهاب بعينه)، وهى تهمة كبيرة تستوجب الرمى بالرصاص، أو النفى من الأرض.

هذه هى الأصولية التى عقد اليهود العزم على محاربتها لأجل التخلص من صُداعها، إنها صنيعة يهودية خالصة تهدف إلى تقويض كل ما هو إسلامى والإجهاز عليه، وقد شهدت إسرائيل نَتها الأول فلما ابتلعها العالم تمكنت من حث جيرانها العرب على محاربتها أيضًا، وقد استحدثوا لها مرادفًا كبيرًا ووهمًا عظيمًا أسموه «الإرهاب»، وقد صنعُوه هم على أعيننا ثم قاموا بتصديره إلى بلاد كثيرة من بلاد العالم.

والثابت أنهم هم أنفسهم أمهر الصناع فى صياغة الإرهاب أسلوبًا وأدوات وهم كما يشهد التاريخ أكبر وأعظم إرهابىّ العالم والتاريخ.

لقد ربطوا رباطًا وثيقًا بين الإرهاب والإسلام، وروجوا لهذا ترويجًا هائلاً بفضل ما ملكت أيديهم من وسائل وأدوات إعلامية تبث سمومهم من خلال التغطية الإعلامية إلى كل شبر على كَوكب الأرض – فى تصديق كامل لما أخبرنا به القرآن الكريم حين قوله تعالى: ﴿**وجعلناكم أكثر نفيرا**﴾، وقد ابتلع العالم الطعم فربطت دُوَلُه بين الإرهاب والإسلام حتى بات كل متدين إرهابيًا حتى يثبت غير ذلك إن استطاع، بينما لا يوجد إرهابى حقيقى إلا وقد تخرج فى مدارسهم العقائدية الفاسدة التى لا تُدرِّس غير الحقد ولا تقدم غير السم الذى يجعل على الأبصار غشاوة تطمس الهويات بجهالتها، وتلصق بالأبرياء الإتهامات بادعاءاتها، إلى الحد الذى يبلغ التطاول على الله جل وعلا.

فتلك إذًا مقولة خاسرة تفوهت بها رئيسة الوزراء الإسرائيلية (جولدا مائير) عندما كانت تُطيِّب خاطر الصهاينة «شعبها» وهى تضمد جراحهم بعد أن أذلتهم العبقرية المصرية فى حرب العاشر من رمضان ٦ / ١٠ / ٧٣م فخاطبتهم قائلة (إن الله لم يختار الشعب اليهودى – إنما الشعب اليهودى هو الذى اختار الله).

واسترْجع ما قالَ موشى ديان وزير الدفاع الكيان الصهيونى فى فلسطين المحتلة فى اليوم الثالث من سقوط القدس بأيدى اليهود عند الإعتداء المفاجئ على الأراضى العربية فى ١٩٦٧م حيث قال: «اليوم أصبح الطريق إلى يثرب مفتوحاً وإن لنا فيها لحقوق» وهو ما يبين تهديداً علنيا وإرهابا مفضوحا بتوسيع دائرة الحرب واستمرار التوسع فى الاستيلاء على الأراضى العربية ولكن هذه المرة – إلى حيث مأوى الرسول ﷺ فى المدينة المنورة (إنه الإرهاب بعينه) الذى جعل «ديّان» يتحدث بهذه الطريقة وكأن أراضينا بلا أصحاب، ليضمّها قهراً وقسراً إلى أرض المعاد – إلى الوطن القومى لليهود المزمع إقامته من النيل إلى الفرات.

إنه الإرهاب الموثق الذى يحمل توقيع اليهود والغرب الصليبى، وهو الكلام الذى لا يجب الدفاع عنه بأى صورة وتحت أى ضغط أو تأثراً بأية ظروف. بل يجب فضحه ورفضه وتعريته.

وهذا زعيم الليكود – رئيس الحكومة الإسرائيلية أثناء مفاوضات السلام، الذى أدار بحنكة بالغة عملية معاهدة الصلح المنفرد مع مصر فى ١٩٧٩ .م بمساعى أمريكية، وبإشراف أمريكى، وبمباركة أمريكية، وفى منتجع سياحى أمريكى هو «كامب ديفيد»، وقد جاء هذا الصهيونى إلى مصر فى زيارة هى الأولى من نوعها وقد قال من أنفه الشامخ المتعالى: «إن اليهود هم الذين بنوا الأهرام» وكانت هذه الجملة بمثابة قنبلة مدوّية أطلقها هذا الإسرائيلى ليشغل بها الساسة والمفكرين وأصحاب الرأى من أجل تخفيف الضغط الواقع على السادات آنذاك من جانب المصريين الرافضين للسلام مع إسرائيل، وقد كان ما فكر بيجين فيه واقعاً – وتم توقيع المعاهدة، وانصرف الرافضون للبحث فى مقولة بيجين حتى الآن.

وبعد أن غادر بيجين مصر فى زيارته الأولى جاءت دعوة السادات إلى دفن مومياء «رمسيس الثانى» احتراماً لقدسية الموت على حد قوله، أما الواقع فإن السادات ما طلب هذا إلا تنفيذاً لرغبة بيجين الذى أراد دفن الملك الذى طرد اليهود من مصر – وهو ذاته الفرعون المصرى الذى شاءت فيه إرادة الله أُخرى لقوله تعالى: ﴿ **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً** ﴾ [يونس: ٩٢].

ومثال آخر قدمه إسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلى، ورئيس حزب العمل، والذى نعته الإعلام العربى على إطلاقه بأنه حمامة من حمائم السلام، وهو فى حقيقته صقر من الصقور الجوارح، لقد فضح رابين بنفسه جانباً من عملية التهويد المستهدفة فى الأراضى المقدسة بإعلانه الرسمى الصريح أنه سيحارب الأصولية

الإسلامية، ونفذ فعلاً تهديده بإلقائه (٤١٥) أربعمائة وخمسة عشر من خلاصة المسلمين المجاهدين الفقهاء المتعلمين الفلسطينيين فى ثلج لبنان، من دون طعام ولا كساء ولا رحمة بعد أن طردهم من ديارهم، وجردهم من متاعهم، وصادر ممتلكاتهم، وألقى بهم فوق قمم الجبال ليقابلوا المجهول.

ومما يوجب الأسى والحسرة ما ظهر فوق الأحداث وتردد على المسامع مدوياً – وهو بَعْث الأعمال الفدائية التى تنفذها حركات الجهاد الإسلامى فى فلسطين التى ترزح تحت الاحتلال الإسرائيلى ضد قوات العدو الغاشم وما يحدث بين حين وآخر من استهدافهم لمدنيين إسرائيليين رداً على اغتيال الإسرائيليين للفلسطينيين بالجملة وهدم منازلهم واستحياء نسائهم، وتشريدهم، وتركهم فى العراء بلا مأوى فى عز الشتاء القارس وترحيلهم خارج أراضيهم – وقد تمكنت إسرائيل من الترويج الإعلامى الهائل لهذه الأعمال الفدائية بأنها إرهاب أصولى إسلامى وقد وجد ذلك صدى إعلامياً مدوياً وقبولاً غير مسبوق إلى درجة مسايرة بعض وسائل الإعلام فى المنطقة لهذه الموجة – وهكذا حدث الربط العلنى بين الإسلام والإرهاب، ووصف الشهيد بالإرهابى، حتى أن السيد / عرفات رئيس السلطة الفلسطينية وقع فى ذات الشرك الخداعى الذى نصبه اليهود عندما أمر بسحب أسلحة الجماعات الفلسطينية المسلحة فى عام ٢٠٠٢م، وطارد المناضلين الفلسطينيين خاصة أعضاء حركتى الجهاد وحماس، ووضع من تمكن من القبض عليهم من هاتين الجماعتين فى أحد السجون الفلسطينية، وقدمهم قرباناً لليهود الذين قصفوا السجن بالصواريخ « جو أرض » من طائرات الأباتشى التى لها القدرة على التعامل مع مثل هذه الأهداف وبدقة، ومات من بداخل السجن تحت الأنقاض – أما عرفات فكان يعمل على استرضاء الإسرائيليين بإثبات حسن نيته من خلال محاربة الإرهاب بالمنظور الإسرائيلى، وكذلك كان يهدف إلى تأكيد سيطرته على قيادة السفينة الفلسطينية والإمساك بدفتها فى أحرج اللحظات التى كانت تئن فيها الرياح المحملة بالمخاطر والمكاره على الشرق كله ليثبت أنه القائد الذى لا بديل له.

وهذا هو أول رئيس وزراء فلسطينى فى التاريخ المعاصر « محمود عباس » أبو مازن – وهو الرجل ذو الدور الهائل فى المباحثات السرية الإسرائيلية الفلسطينية – وهو كذلك الوجه المألوف والمرغوب لدى الأمريكيين والإسرائيليين كونه يعد مهندس اتفاقيات « مدريد وأوسلو » – وقد فرضه الأمريكيون والإسرائيليون على عرفات حتى كاد الصف الفلسطينى أن ينشق نظراً لبعض الصعوبات المتعلقة بطبيعة عمله

واختصاصاته التى كان الهدف منها طبقًا للرؤية الأجنبية المشتركة هو تقليص دور عرفات وتحجيمه وسحب البساط من تحت قدميه.

وقد جاء أبو مازن على رأس أول وزارة ليعلن أن أول أهداف حكومته التى وُلدت إكراهًا هو نزع أسلحة المنظمات الفلسطينية والقضاء على الأجنحة العسكرية والحركات الجهادية – أى – القضاء على الإرهاب الإسلامى «إياه»، فازدادت حدة المقاومة وتعددت العمليات الاستشهادية فى العمق الإسرائيلى خاصة مع التصعيد الإسرائيلى الخَطير غير المسبوق . وتسارعت وتيرة العنف، والعنف المضاد – وعجز «أبو مازن» عن تنفيذ برنامجه الطموح فى القضاء على الإرهاب – فأطاحت به إسرائيل بعد أن أحدثت الإنقسام فى الداخل الفلسطينى – وضغطت إسرائيل بشدة – حتى تقدم أبو مازن باستقالته بعد شهور قليلة فى عام ٢٠٠٣م.

ظل ياسر عرفات على رأس السلطة فى الدولة المهزلة، يؤدى المهام التى عُيّن لأجلها ومن أجلها سُمح له بالعودة– وأخذ يجتهد فى نزع أسلحة الحركات والجماعات الفلسطينية على أمل الفوز بالرضا، والتوقيع على اتفاق سلام يضمن به مساعدات الدول المانحة، وبخاصة الأموال العربية التى سيتلقاها تحت حساب إقامة اقتصاد فلسطينى وطنى قوى، وإعادة الإعمار، وإقامة هيكل صناعى إنتاجى متكامل... إلخ.. وكان عرفات يتبنّى بالتمام كل النظريات الأمنية التى تُملى عليه حتى أمر بنزع أسلحة شعبه. تحت شعار مكافحة الإرهاب، وإبادة الإرهابيين.

ولم نسمع بصوت عاقل ارتفع ليحتج على هذه الأحداث الجسام المزرية والمخزية عدا صوت السيد / فاروق قدومى الذى أذاعت له إذاعة مونت كارلو «أن السلاح الفلسطينى لا يجب أن يُجمع من الشعب الفلسطينى لأنه كله سلاح مرخَّص (مشروع) للجهاد والنضال وتحرير الأرض».

وهو ما يذكرنا بموقف الوزير اللبنانى المسيحى (العربى) ميشيل سماحة عندما أكد على رفضه المطلق وصف المقاومة الإسلامية فى جنوب لبنان بالإرهاب فى حديث له عام ١٩٩٥.م

وفى عام ٢٠٠٣م قالها صراحة الرئيس اللبنانى العماد «أميل لحود» فى وجه وزير خارجية أكبر وأقوى وأعتى دول العالم (كولين باول) وزير خارجية وحيد القرن الذى جاء إلى المنطقة فى جولة مكوكية عقب سقوط بغداد. وقد حاول الضغط على رقاب الفلسطينيين فى سوريا، والإسلاميين فى الجنوب اللبنانى– فرد عليه (لُحود) قائلاً «إن حزب الله هو حزب سياسى شرعى معترف به» واستطرد فأكد على الدور

العظيم الذى لعبه رجال الحزب فى تحرير الجنوب اللبنانى من الإحتلال الإسرائيلى الذى دام عشرين عامًا.

إن المعنى العام لكلمة إرهابى اتسع ليشمل المجاهدين المدافعين عن ديارهم وأوطانهم وأعراضهم وأموالهم وأولادهم أمام بطش الإحتلال الإسرائيلى الغاشم، إلى جانب الجماعات أو الأفراد الذين يقفون أمام إرسالات التبشير، حتى بات كل متدين إرهابيًا كما ذكرنا حتى يثبت العكس إن استطاع.

أيها السادة: إن العداوة عالمية وجهرية وفاجرة، فهى تتهم الجهاد الأفغانى فى وجه الإحتلال الأمريكى بالإرهاب. بينما كانت أمريكا ذاتها هى التى تغذى هذا الجهاد الأفغانى وتموله وتقدم له كافة أشكال الدعم المادى والعسكرى حتى تمكن من طرد الإحتلال السوفيتى، وهى ذاتها العداوة التى تغض الطرف عن الإرهاب الصليبى فى البوسنة والهرسك، والإرهاب الروسى الكاثوليكى فى الشيشان، وفوق كل ذلك التزم الجميع الصمت أمام أبشع جرائم التاريخ الواقعة على مدار الساعة منذ ١٩٤٨م حتى الآن فى فلسطين، وما طرأ من جديد بسقوط العراق وما يدور على أرضه.

إن الغرب كله كما كان لا زال حريصًا على احتساء دماء المسلمين، والرقص على أشلائهم، وابتلاع ثرواتهم، وإهدار طاقاتهم – وإنه هو ذاته الغرب الذى انتفض بشدة وهبّ لإنقاذ تماثيل بوذا فى أفغانستان – التى لا تتعدى كونها تماثيل لآلهة تُعبد من دون الله – فى بعض مناطق شرق آسيا حتى الآن – بحجة أنّهَا تراث بشرى يجب الحفاظ عليه وإنقاذه وصيانته، أما البشر المسلم فى عيونهم فليس له حق الحياة كما نطقت بذلك توراتهم وشهد بها تلمودهم.

لقد كان سيناريو أحداث الإبادة الجماعية والجرائم الإنسانية التى تعرض لها المسلمون فى البوسنة والهرسك نموذجًا متكررًا ومتطابقًا مع ما فعله الأحباش ضد المسلمين فى إريتريا والصومال. فالشيوعيون قدموا الأسلحة والذخيرة والمؤن والعتاد للأحباش لإبادة الشعب المسلم فى إريتريا والصومال وامتنعت أمريكا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا تمامًا عن تقديم أى دعم للصومال أو بيعها السلاح، وفيه دليل قوى على التآمر المكشوف من كل من الشيوعية والإمبريالية لإنقاذ قلعتهم المسيحية فى إفريقيا، وضمان تسيدها على دول الجوار الإسلامى لا أن تكون مجرد جزيرة مسيحية منعزلة عن دول الجوار وغير مرغوب فيها.

لقد فتح الأحباش أو قل (الأوباش) النار على المصلين فى أحد المساجد بمدينة (ريردار) بإقليم أوجادين الصومالى من رشاشاتهم روسية الصنع على المصلّين فابادوا

منهم ألفًا دفعة واحدة[1]، ولم يتحرك ساكن فى الغرب كله الذى يعيش بأخلاق الملائكة بعد أن بلغ الرشد وبلغ التنوير لديهم منتهاه.

يشهد بذلك ما حملته إلينا وكالات الأنباء عن قصة القطة والكلب اللذين اكتشف طاقم الطائرة البوينج أنهما مسجونان فى عنبر البضائع، حيث لا تكييف، وحيث بلغت درجات الحرارة أثناء الطيران فى طبقات الجو العليا ثلاث درجات تحت الصفر، فقرر الطيار الشهم قطع خط السير، والنزول فى أقرب مطار لإخراج القطة والكلب من هذه الثلاجة، واستضافتهما على كوب من اللبن فى الصالون الدافئ للدرجة الأولى حتى بلوغ نهاية الرحلة[2].

بينما فى تلك الآونة مات تحت الجليد فى سراييفو فى درجة عشرين تحت الصفر المسلمون البوسنويون المحبوسون فى ثلاجة الطبيعة الرهيبة، لا يدفئهم غير نيران الإنفجارات الهائلة المنبعثة من وابل القنابل والصواريخ التى تمطرها القوات الصربية فوق رؤوسهم، ولا يستشمون غير شواء اللحوم الآدمية التى شبعت بها الكلاب.

إنه الصمت الدولى الرهيب على الإرهاب الصليبى فى البوسنة وأفغانستان والعراق وعلى أعمال القهر والقمع فى استراليا والفلبين وأندونيسيا وفى الهند حتى فى البلاد التى تتشدق بأنها الأم الشرعية للحريات فى العالم وسيدتها على الإطلاق.

كما أن هناك صورة عامة رسمها الروس لأنفسهم عندما نصبوا أنفسهم مكان القائم على حراسة الجمهوريات الإسلامية فى القوقاز، وآسيا الوسطى، بل وأفرَطوا فى التكيف مع معتقداتهم حتى اعتبار تلك المناطق الإسلامية مناطق تابعة لهم كى يضمنوا أن لا تقوم فيها أى أنظمة حكم إسلامية تتمتع بالإرادة الحرة والسيادة المطلقة، وتكمن وراء هذا المخطط كل الأحقاد الصليبية والروسية القديمة ضد الإسلام.

لقد استعادت روسيا هويتها البيزنطية الكاثوليكية بعد رحيل الحكم الشيوعى الذى سقط فى كل مكان، إلا أنه لا يزال يسيطر على تلك البلاد الإسلامية القابعة تحت الحكم الروسى، ويفرضون عليهم قسرًا وقهرًا من يصادقون من شعوب العالم الإسلامى – حتى لا تنتشر بينهم حُمّى الإسلام والإرهاب المزعوم، من ذلك مثلاً أنهم سمحوا لهذه الشعوب أن يصادقوا الأتراك التى يحكمها العلمانيون الملحدون.

والحقيقة أن الغرب والروس والحكام المحليين لتلك الدول المنكوبة، قد خافوا جميعًا من المد الإسلامى المتنامى فى تركيا نفسها، وزاد تخوفهم من تشكيل محور

---

(١) مجلة الاعتصام المصرية ١٩٧٧.

(٢) الطريق إلى جهنم ص٣٧.

تركى إسلامى يمتد من الأناضول حتى حدود الصين بما قد يُعيد للأذهان أمجاد العصر العثمانى والخلافة الإسلامية.

وقد اجتهد الغرب المنحمس لقيام الإمبراطوريتين البيزنطية والرومانية للحصول على الخبرات اللازمة والنصائح الهامة للقضاء المبكر على أى نحو للحركات الإسلامية، والإبقاء على ثبات التيارات الإسلامية فى ثباتها العميق والنوم الهانئ، وانتهى بهم المطاف إلى الإستعانة بالحكم الإندونيسى العلمانى الذى زار وفدٌ منه هذه الجمهوريات الإسلامية فى إبريل عام ١٩٩٥م وسط أجواء من التفاؤل المسهب، وهالة كبيرة من التهليل والترحيب، والتعبيرات التى أطلقتها الصحافة الغربية بأن أندونيسيا دولة مهمة بالنسبة لنا (أى للغرب) وذلك كله على أمل أن تقدم أندونيسيا خبراتها العديدة فى مجال إبعاد الإسلام عن السياسة.

وفى الوقت ذاته وفى تلك الآونة تفجرت مخاوف عديدة فى الغرب كله عبر عنها بوضوح الإعلام الغربى كرد فعل طبيعى لتنامى الحركات الأصولية الإسلامية فى الداخل الإندونيسى إلى درجة اتخاذها طابعًا سياسيًا قويًا بات يزعج الغرب بتطوراته المتلاحقة، على الرغم من أن النظام والجيش الحاكم فى أندونيسيا يتطابق تمامًا مع ما عليه الحال فى تركيا الإسلامية الديانة – علمانية النظام وبهذا يظهر الغرب وهو يعانى من حقيقة تؤلمه، ألا وهى أنه لا يوجد صديق إسلامى يمكن الإطمئنان إليه أو معه فى هذه البلاد.

فاتجهت حكومات تلك الدول الإسلامية المستكينة المقهورة، بل والقيادات السياسية فيها إلى إقامة علاقات تجارية وأمنية وسياسية. وتطوير التعاون العسكرى مع إسرائيل مثل (تركيا، وأندونيسيا ودول البطن الضعيف للروس) وذلك فى غياب كامل لسبع وأربعين دولة إسلامية وقفت مكتفية بالفرجة، عاجزة عن تقديم فعل، أو القيام برد فعل.

وقد نجحت اسرائيل بفصل المسلمين عن دينهم بالمال والنساء مستغلين فى ذلك حالات الفقر المدقع للشعوب الإسلامية التى تنهب خيراتها الأنظمة العلمانية – كما تعمدت إسرائيل بمباركة الغرب ودعمه تشويه عقيدة المسلمين هناك – حتى بدت تلك الجمهوريات الإسلامية التى قدمت للعالم خيرة العلماء والفقهاء على نحو ما ذكرنا آنفًا وهى الآن تعد من أكثر المناطق التى تروج فيها إرساليات التبشير للدعايات التبشيرية، وأضحت وهى من أهم مناطق النمو المتزايد لأنشطة ونفوذ الكنائس، وإرساليات التبشير النشطة.

وفى الباكستان حيث زارها فى أوائل إبريل ١٩٩٥م الرئيس الألمانى (ردمان هيرزوج) وهو رئيس الدولة التى جعلها الحلفاء خصمًا سياسيًا، وهى تحاول الصعود من جديد، والدخول إلى مسرح السياسة العالمية والمشاركة فى الساحة الدولية عن طريق الدخول من باب العداء العالمى للإسلام.

وقد أبرزت وسائل الإعلام الألمانية تصريحات « هيرزوج » التى أدلى بها خلال مقابلته مع كبار المسئولين الباكستانيين، وقد أذاعت صوت ألمانيا فى السابع من إبريل ٩٥ .م تلك الطروحات الألمانية التى حددها الضيْف فى نقاط أساسية من أهمها:

١ – المطالبة بعدم تطبيق الشريعة الإسلامية.

٢ – إلغاء العقوبة الجنائية الواجبة على إعلان الكفر والزندقة – أى – إطلاق حرية الأديان وعدم مناهضة ما يترتب عليها من آثار خاصة تلك التى تتعلق بعمليات إرساليات التبشير المسيحى على الأراضى الباكستانية وعدم تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على المرتدين عن الدين الإسلامى سواء فى ذلك المتنصرين أو المتحولين إلى عقائد أخرى.

٣ – تحجيم التيارات الإسلامية[١] – أسوة بما هو متبع فى كبريات الدول الإسلامية.

والغريب أن القيادات الباكستانية لم تكتف بمجرد السماع إلى الضَيْف المُبشِّر فحسب. بل أبدت تفهمًا لمطالبه.

وقد حاول قائد الإنقلاب الجديد الجنرال (برويزمشرف) الذى تمكن من الإطاحة برئيس الوزراء الباكستانى السابق (نواز شريف) – حاول الإتجاه بالبلاد صوب العلمانيّة لأنه كان يرى فى النموذج التركى مثله الأعلى، غير أنه وجد معارضة داخلية كبيرة كادت تجعل الباكستان على شفا حرب داخلية طرفيها النظام بما يملك من جيش وشرطة فى وجه المواطنين والمنضمين إليهم من المتمردين على أصحاب الدعوة الجديدة وعلى أنصارها، رجال الجيش والشرطة.

وبعد تراجعه عن أفكاره العلمانية اتجه إلى الولايات المتحدة وصار نموذجًا متطابقًا مع ما كان من نظيره اليمنى على عبدالله صالح[٢].

ولعلنا لا نكون قد نسينا ما عانى وما قاسى الرعيل الأول الذى ناضل كثيراً من أجل قيام باكستان المسلمة ذات الطابع الخاص والنموذج الفريد.

---

(١) المختار الإسلامى العدد ١٤٩ لسنة ١٦ فى ١٣/٦/٩٩٥.م

(٢) التفاصيل كاملة فى كتابنا – المؤامرة الكبرى.

إن العداوة العالمية لدين الله آخذةٌ فى التطور والتَنوُّع للتطاول على دين الله وعلى أتباعه ممن كانت (لا إله إلا الله محمد رسول الله) تحدد مسارحياتهم قولاً وعملاً، وما هذه العداوة المتصاعدة إلا ترجمة للحقد المرير الذى يملأ صدر الغرب إلى درجة إصابة عقولهم بالخَبل والجنون، بعد شعورهم بالخوف الرهيب من الإسلام إلى أبعد حد ممكن فى تشكيل التركيبة النفسية الأوروبية.

ذلك لأن الإسلام لا زال كما كان يُشكل أسس العقيدة الأكثر فاعلية فى الرأى العام الإسلامى كله، كما أنه يشكل اللون الأساسى لأتباعه على إطلاقهم، بينما تزداد فاعليته كلما كانت أنظمة الحكم أكثر شعبية – أى – قائمة على أساس إعطاء الحرية للشعوب.

وقد عبر المستشرق الإنجليزى الصهيونى الشهير (برنارد لويس) فى دراسة نشرها عام ١٩٧٦م تحت عنو ن (عودة الإسلام) : « إن الإسلام قوى جداً إلا أنه لا يزال قوة غير موجهة فى ميدان السياسة الداخلية، وهو يبرز كعامل أساسى محتمل فى السياسة الدولية، وقد جرت محاولات كثيرة فى سبيل سياسة تضامن إسلامى أو جامعة إسلامية للدول الإسلامية إلا أنها أخفقت كلها فى تحقيق تقدم نحو إقامة هذا التضامن، وإن أحد الأسباب المهمة هو عجز الذين قاموا بهذه المحاولات فى إقناع الشعوب الإسلامية بما يريدون »[١].

أى أن هذا الصهيونى البريطانى الجنسية يعبّر عن قناعته الشديدة بأن الإسلام فى طريقه إلى العودة للهيمنة على العالم، ولذلك أراد أن ينبه الغرب بالإنتباه والحذر، وكأن لسان حاله يقول: « إن المسلمين ينتبهون من غفوتهم ويكادون أن ينهضوا من ثباتهم – فدمِّرُوهم، واقتُلُوهم قبل أن يُحطِّمُوا قُيودَهم والأغْلال التى كانت عليهم ويهبوا من رقدتهم – وإذا انتفضوا فلن يقف فى وجهِهِم شىء ».

إن هذه العداوة العالمية التاريخية التى تولدت عن هذا الصراع المتأجج بين الحضارات – لتعبرّ تعبيراً دقيقًا وحيًا عن رُعب هؤلاء من الإسلام، لأنهم يعلمون يقينا أنه هو الدين الذى يحرك الشعوب، ويبعث فيها الحركة، ويمدها بالحيوية والقوة والنشاط، كما أنه يربى فى نفوس أتباعه عقيدة الجهاد، وينكر عليهم الخلود إلى الأرض وأخذ الراحة، وهو الدين الذى تأسست عليه أعظم الحضارات الإنسانية على إطلاقها، فأصبح فيها الأعداء إخوانًا، واجتمعت تحت لوائه ألوانًا شتى، وألسنة متباينة

---

(١) قادة الغرب ص٦١.

وكونوا نسيجًا واحدًا لأمة ذات هدف واحد، وقيمة واحدة، وأحكام ولغة وشريعة واحدة، فكانت بحق كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وذلك هو مكمن الأحقاد ومبعث الغيرة الشديدة ضد هذه الأمة الخيِّرة المرحومة.

ولذلك عكف الكافرون وأذنابهم على دراسة الدين الإسلامى الحنيف، وأوفدوا رُسُلهم إلى ديارنا تحت مسمى «المستشرقين». وقد عرفوا عن استحقاق النوعية التى يخرجها هذا الدين، وشاهدوا الإرادة التى يفرزها، كما علموا عن جدارة عناصر القوة فى عقيدته الشامخة، ومنهجه المستقيم، فتأكدت لهم النتيجة التى خرجوا بها من جولات صراعهم وصولاتها المريرة مع المسلمين، وعلموا عن يقين أن تقدمهم نحو فرض هيمنتهم على العالم، وسعيهم إلى السيطرة عليه، ونيل مآربهم فى إستذلال العباد مرهون بغيبة الإسلامة وجُنْده الصادقين.

فاحتدم بسبب ذلك الصراع ولبس غير لباس ليصبح على ما بات، وهو متجدد لا ينشيخ ولا يعرف لغة غير حوار الدبابات، ليتأجج الصراع ويتطوّر ويمتدّ إلى الحضارة الإسلامية دينًا وأتباعًا أينما وُجد مسلمون.

وهو صراع ضارٍ يَشنُّه وبلا هوادة ذلك التكتل العالمى الصليبى ـ الصهيونى الوثنى – بتخطيط شيطانى على كل الأصعدة سياسيًا، واقتصاديًا، وثقافيًا، وإجتماعيًا، وإعلاميًا، وحربيًا بكل ما أوتوا من قوة وما حازوا من إمكانيات.

ويستمر الصراع، ويتطور الحوار.

* * *